حديث الشهر

عبد الله العلايلي

مثلهن الأعلى

خديجة أم المؤمنين

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

PC1=0
'Alāyili

عبد الله العلايلي

مثلهن الأعلى

خديجة أم المؤمنين

- ١ -

مطبعة الهلال - بغداد

(RECAP)

BP76
.8
.K48A66

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
02101 01487384

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة ...

فكرة هذا « الحديث » خالجتنا قبل مدة ليست بالبعيدة ، وترددنا في الاقدام على تنفيذها مدة ليست بالقصيرة أيضاً .

وقد حفزنا على التفكير في مثل هذا ما رأيناه من اتجاه نفر من شبابنا الطالع ، نحو الأدب الرخيص تطلع به علينا الكثرة من دور الطباعة في ايامنا هذه . فنظرة عابرة على اكثر مجلات هذا اليوم ترينا انها قد انساقت نحو طريق شائك تحف المخاطر باكثر جوانبه ، وليس ادل على ذلك من تكاثر المجلات المصورة الملونة وتزاحمها في نشر هذه الصورة والابداع في هذا الاخراج كأنما القارئ العربي اصبح قارئاً للرسوم والاحاديث التي ليس لها من الأثر سوى تسويد تلك الصفحات البيض ...

وناحية اخرى ايضاً وهي انصراف شبابنا في ايامنا هذه عن تاريخ ابائه واجداده ، وجهله شوامخه واعجاده ، انصرف عن هذا انصرافاً يبعث في النفس المرارة والألم ، بعد أن طغى عليه تيار التجدد المزيف فوضع ستاراً كثيفاً ما بين عصرنا الحاضر وماضينا المضيء المجيد. فكأنما شرط المدنية الحديثة الاساسي هو دثر آثار الماضي وطمس معالمه ، وكأنما شرط المدنية الحديثة الأساسي هو قيامها على انقاض التواريخ وانقاض المتقدمين ، وكأنما شرط المدنية الحديثة الأساسي هو مناقضتها لكل قديم مهما كان . . . وتمشياً مع هذا الشرط تعامينا عما خطه التاريخ من آثار خوالد تواكبها العظمة والجلالة من كل أطرافها ، انصرفنا عن كل ذلك لنتعلق بحبال قد اعطيها شيئاً من القوة اذا قلت عنها انها أوهى من خيوط العنكبوت .

فهل لهذا من تعليل صحيح يبرر هذا الهدم الشامل الضار ؟ وهل يصح لانسان ان يهدم ماضيه بما فيه من مفاخر ومحاسن ليتعلق بأمل ضائع تعصف به الاهواء في كل حين وتتقاذفه العواصف في كل وقت على غير اتجاه وفي غير مستقر ؟ ! !

لقد توزعت السبل ، وتشتت الاهواء ، وانتشر الناس موزعين في تلك الطرق المتشعبة ، كل يهدف الى أمر ويتجه الى مرمى ، تاركين

وراءهم كل ما ورثوه ونشؤوا عليه من مبادئ ومثل ، تاركين كل ذلك وراء ظهورهم لا يعنيهم منه شيء سوى التطبيل والتزمير لهذا المبدأ أو ذاك المعتقد ، حاصرين جهودهم في هذا الوليد الجديد ، يحوطونه بخدماتهم ويكلأونه بجهادهم ، انجهوا الى هذا دون أن يكلفوا النفس شيئاً من الالتفات الى ما تركوه وراء ظهورهم من مبادئ واسس ثابتة راسخة لن يثبت امامها اي مبدئ طارئ جديد واي مذهب مستحدث اذا أردنا ان نناقش الامور بالمنطق الصحيح وننظر اليها بالنظرة الصحيحة الصائبة الحقة .

ان بعض ذلك الجهاد ، وبعض ذلك الاخلاص ، وبعض ذلك التحمس الذي احطنا هذا الجديد به ، ان بعض ذلك يكفينا للارتفاع بأنفسنا الى المكان الذي اراده لنا مبدؤنا الصحيح القويم والاستخفاف بالكثير من تلك المذاهب العارضة التي لم تخلق الا للتناحر ولم تبث الا للاستعباد والاسترقاق .

هذا شيء يستلفت النظر بطبيعة الحال ، وهذا أمر نجب معالجته فيما اعتقد ولعل توجيه الانظار الى ذلك نوع من انواع المعالجة ، ولعل الخوض في مثل هذه المواضيع نوع من أنواع العلاج ايضاً ، ولعل البحث المجرد الصحيح لقضايانا التاريخية ، والدرس المجرد الحر لشخصياتنا

المثالية الحقة ونشر سيرهم ، قسم مهم من الوداء الناجع لدائنا المستفحل المنتشر .

ان في تاريخنا من الحوادث والعبر ، وفي رجالاتنا من الابطال العباقرة الشامخين الكثير الكثير الذي لم نقرأه ولم نتحدث عنه ولم نعرف عنه شيئاً . وهذا - كما ترى - نوع من العقوق والنكران لاولئك الذين اثاروا لنا الطريق وعبدوه لنسير عليه دون عوج ولا التواء ، ولكنا شئنا ان نتخذ الطريق الوعر مسلكاً ، فرحنا نتخبط في دياجيره المظلمة ونطيل السير في التواءاته المتعرجة الكثيرة دون ان نلتفت الى ذلك الطريق اللاحب الذي يشع بالنور ، ويدفع بنا الى الحياة عن طريقها الصحيح المستقيم فنزل الى معتركها مقدرين مستنيرين ، فنكمل ما بدأوه ، ونبني فوق ما أسسوه .

هذا الى جانب حوادث كثيرة اشار اليها التاريخ من طرف خفي أو الم لها تلميحاً خفياً ، فراحت في بطون الكتب ضائعة مبعثرة ، وتقدمت الايام ودارت العصور وهي مهملة في مكانها من الزوايا المتفرقة دون ان يتقدم احد لأزالة الغبار عنها واخراجها للناس على حقيقتها خاضعة للتحليل المنطقي الدقيق الصحيح المستمد من تلك النتف

الموزعة فى تلك الصفحات توزيعاً اقل مايقال عنه انه توزيع فى غير عدل ولا انصاف .

وكما هضمت تلك الحوادث فى التاريخ فكذلك هضم معها رجال قضوا حياتهم فى خدمة صادقة مخلصة لواعارها التاريخ شيئاً من الانصاف لاحتل اولئك اخلد صفحاته وانصعها بياضاً واشرفها نوراً .

كل ذلك دفعنا للقيام بنشر هذه السلسلة التي ترى كتابها الاول بين يديك وسوف يتلوه - انشاء الله - فى كل شهر كتاب يبحث حادثة من تلك الحوادث أو يقدم رجلا من اولئك الرجال ، أو يعالج مشكلة من مشكلاتنا اجتماعية كانت ، أو ادبية ، أو علمية أو غيرها مما يرافق حياتنا من نواحيها جميعاً .

هذه هي الدوافع التي دفعتنا الى الاقدام على هذا العمل ، وقد قامت امامها موانع تبعث الضعف فى النفس ، والخور فى العزمة ، والتردد فى الاقدام ، ولا استطيع ان ادعى بان كل ما احتمل يمكن ان يقع ، ولكن الظن فى الوقوع حامل على اضعف الاحوال ، ولا ارى ذكرما احتمل من الامور مما يبعث على التردد لازماً ، بعد ان نخليها اعما كلها وسرنا معتمدين على الله راجين منه التوفيق والمعونة .

والسلسلة بعد هذا مكتبة متنوعة شاملة ، تضم بين دفتيها

دراسات وافية للمواضيع التي تبحثها وتتطرق اليها ، يقدم كل كتاب منها كاتب مختص ممن عرفهم العالم العربي ، باقلامهم الحرة وآرائهم المجردة واتجاههم الصحيح .

ولا يفوتنا ان نطلب من القارىء الكريم مشاركتنا النهوض بهذا العمل والارتفاع به ، ليؤدي الخدمة التي قصدنا اليها من وراء اصدار هذه السلسلة ، ونصل الى الهدف الذي نرمي اليه ، فيؤنسونا بآرائهم واقتراحاتهم لنصل بمعونتهم الى مارمينا اليه .

هذا واننا نرحب بما تنتجة اقلام اصحاب الاقلام منهم في المواضيع المختلفة التي توافق خطة هذه السلسلة ليكون حلقة من حلقاتها .

هذا ما اردنا بيانه في هذه السطور لندل على الهدف الذي حدا بنا الى اصدار هذه السلسلة والاعتماد بعد الله على القارىء الكريم وتشجيعه .

والله من وراء القصد .

عبد الأمير السيبي

مقدمة

أن اصيب القصد كله . . فأحكي حكاية بياض الطهر بسواد هذا الحرف، مطمح استحيي ان أزعمه . بل لعل الحرف فى وعيه الاقصى ، مازعم لنفسه شيئاً فوق أنه قدرة التراب على رسم الأثر . . وكان فضله من بعد وكان إدلاله ، فى انه أنه أثر يتلفت ، وهو فى تلفته يشير . . ثم يغمض الحرف جفنه ، وتنقطع به عما وراء الاشارة الكبرياء .

وأما بالحرف ـ وهذا شأنه ـ ما كنت لابلغ حتى حيال موائل الوجود المادي ، مبلغاً ينقل همسة الطيب مثلها فى فم الازهار ، اوأية ارتسامة اخرى تقع وتخطر على لوحي الليل والنهار . . فكيف بي ، أو كيف تراني ؟ ! . . حين أرود معالم الوحي فى حمى النبوة .

إنني حين أدنو ، لا أعلل نفسي باكثر من ان أرجع بحرف ملوّن . . حظه فى أنني غمسته واصاب من الينبوع كما ارجو ـ ان لم يكن الضياء ، فلا أقل من ان يكون الرواء .

على ان الطبيعة في ذكرياتها الاولى ، لم تكن تعرف الالماسة المشعة ، الا أنها أضلاع عتمة في قطعة فحم ، صلت صلاتها في محراب الكون ، فأفرغ عليها من حقيقته . . أي أفرغ عليها هذا الشيء الذي به تضيء .

هذا الشيء الذي تقول هي عنه : انه بعض من جوهر المادة بالمعنى ، فشأنها أنها دوماً في صلاة . . وتقول عنه طبيعة الشهوة فينا : إنه بعض من مس المادة بالزينة ، فشأننا أننا دوماً في فتنة .

فأصمنا أن لا نسمع ، وفي كل شيء - أي شيء - نداء . . .

ثم لا اطمع لفحمة هذا القلم الذي اقلبه - وقد اطلقت لها في مجرى يصلها بالأقداس ، أقداس الروح ، وليس في عبارتها الارضية أيضاً - الاحظ تلك الفحمة التي لا تفتأ تبث خبرها ، بما تبث من سنى يمد به سناء .

والقلم الذي لاتضع في حروفه طبيعة معناك على ما أردت ، يضع فيها طبيعة معناه على ما أراد . . وطبيعته ليست الا بعضاً من حجر في بعض من خشب ، جهده انه يمج ويجري ، بشيء كالظمأ على شيء كالجدب ، لا تطرية ولا جمال ولا روحانية ولا حياة .

ومهما كان القلم صناعاً على خلب والتماع ، فانه لايمدو ان يكون خلب سراب والتماع آل . . على ان الزخرف قد يكون له مس البهجة

حين تعتصره في نفسك، ولكن ندر ان كان له معى الاطمئنان فيها.

* * *

وبعد فهذه فصول من الماضي المشرق السخي بالاشراق، أردت أن أعقد بينها عقد خيوط الشعاع، فتظهر كبيرة كبيرة، لا بما أضفي عليها من تألق هو في ذات نفسها، بل بما اساعد على أن تضفي علينا منه.. فتعمل فينا عملها الذي هو حظنا من التاريخ.

على أن حكاية الحاضر من الماضي، وحكايتها جميعاً من المستقبل هي بينها في هذه وهذه حكاية الحجر من الحجر في مدى بناء بعيد، واحدة تلاحم واحدة على نحوين من الفعل أو الانفعال.. وأعجوبة التاريخ في ذلك كله، أنه البناية التي تلاحم بين المادة والحياة، بين المكان والزمان والكائن، في الفكر لحاماً عجيباً.

ولكي يتضح لك ما نعني أكثر فأكثر، نجد من الخير أن نكشف لك عن أبرز خصائص الحاضر بكل ما يشترك في تكوينه.

وعلى صعيد هذه النظرة، يبدو الحاضر لنا وليس شيئاً وراء كونه الملاحمة المستمرة على شكل من التكييف، بين المادة والحياة، في الزمن.. أما حين تتخذ الملاحمة شكل التكيف، فانها لا تعني حاضراً بل استمراراً لماض، وانقطاع صفة الحاضر يعني انقطاع

صفة التاريخ إلا على وجه من السلب .

وهـذا المفهوم قـدر مشترك يجمع على سواء ، حاضر الافراد وحاضر الجماعات دون فرق إلا فرق الاعتبـار ، ومداره الكم لا الكيف .

فحاضر أي فرد كحاضر أية جماعـة ، يعبر عن ملاحمة دائبة في الزمن أي في الآن ، لا تنقطع أو تتوقف ، بين واقعين : لأحدهما صفة المادة أي الافتعالية ، وهي تتناول كل ما انفصل من الكائن . . وللآخر صفة الحياة أي الفاعليـة ، وهي هي التي تفرغ على الملاحمة قيمتها وتضعها في المتجه الحقيقي الذي ينبغي لها .

فحين نقول حاضر امة ، ننظر فقط الى هذه الملاحمة في الآن - بين الامكانيات المادية وتشمل الصفة الاجتماعية والمعنويـة ، وبين طاقاتها الحيويـة - وما لها أي لهذه الملاحمة من مستوى يجيء عالياً أو دانياً ، رفيعاً أو وضيعاً . . وهكذا قل اذا ما أضفت الحاضر الى الفرد ، فانه أيضاً هو هذه الملاحمة نفسها في الزمن .

إن شخصية كالتي نتناولها في هذا الكتاب بالحديث ، كان حاضرها تعبيراً عن هذه الملاحمة : بين الواقع المادي للمجتمع يومذاك وبين واقعها الشخصي الحي ، على شكل من التكييف الرفيع له ،

بدا جلياً في مظاهر نبل التضحية .

بينما هي اي هـذه الشخصية حينما غدت تاريخاً ، تربنا كيف استحالت تعبيراً عن ملاحمة في الفكر بين المادة والحياة فوق حدود الزمن .. أي تربنا كيف استحالت تعبيراً عن وحدة إنسانية شائعة ، نجد نظائرها في شخصيات اخرى لم يعد فيها الا انها عبارات إنسانية خالصة .

وهذا المثل يمكنك اعتماده في قصد السبيل الى استيضاح مفهوم التاريخ الذي نطوبه : على انه الملاحمة بين ما هو مادي وما هو حيوي في الفكر ، أو في صيرورته . . ونعني : الطاقة المنطلقة الى تحيز آخر جديد ، في الزمن .

ومن ثم لا يبقى عسراً أبداً ان ترى التـاريخ كيف هو مقبرة الحدود من اي نوع ، وكيف يكون لنا منه ما هو أشبه بمعمل لتفجير الذرة ، ذرة الآن ، من قيودها في الزمان والمكان ، لتضحي طاقة تظل سارية وتظل مصدر توليد وإمداد . . .

ومن هذا المفهوم الذي نطالع به الحاضر والتاريخ ، نستخلص ونخرج بنتائج ضخمة ، تتصل بقضية القيمة العملية ، وما نستتبع من قضايا الاخفاق والنجاح وما اليهما ، بحيث لا نعي من بعد بفهم

ما وراء المظاهر مما له صفة الحقيقة .

فحين نتناول اليوم بالدرس مجتمعاً ما ـ ولنخصص نطاق النظرة فنقول مجتمعاً كالمجتمع العربي المعاصر ، متتبعين فيه مطارح القيمة والبواعث العاملة التي تشده الى النجاح أو تدفع به الى الاخفاق ـ ينبغي أن ننعم النظر قبل أي اعتبار آخر ، فيما هو متوفر هناك من مقومات هذه الملاءمة ، وفيما هو متمتع به منها . . ونحن من وراء هذه النظرة نستطيع الحكم بما لا ينحرف عن الحقيقة أو يخلىء وجهها .

فني المثل الذي التزمناه لا نعثر في كل المجتمع العربي بملاءمة بل باستمرار لماض ، من حيث إنه مجتمع مسبوق بكثير من الصفات الأساسية المكوّنة التي تدخل اليوم في حد الامكانيات المادية أو ما أسميناه « بالواقع المادي » .

وفقد الملاءمة دون ريب ، معناه فقد الحاضر . . وهذا بدوره يستتبع عدم « التأرّخ » ، اي عدم القابلية ليكون تاريخاً أو ليدخل في حسابه إلا على وجه من السلب .

* * *

وفي هذه العجالة التي اردناها كمدخل خالص يوضح بعض

الايضاح ويفسر بعض التفسير ، ما نحن مصوقون بالذات الى بحثه ..
ليس يعنينا أن نتوسع في البيان والتطبيق باكثر مما فعلنا ، فما نتوخى هو أن نتحقق من ان الشخصية التي نختصها في هذا الكتاب بالحديث ، كانت بحاضرها وتاريخها أبلغ مظهر من مظاهر هذه الملاحمة الفذة .

فلم تأت من تاريخ النبوة وقصارى أمرها انها وجه من وجوه الأخذ ، بل أتت ولها أيضاً حظ اي حظ من العطاء .

ومن ذا الذي يشك في انها كانت شيئاً كثيراً ، من عمل النبوة وسعي النبوة . ثم من ذا يشك ، في أن النبوة بين عزمتها التي لا تلين ، ومعين قلبها الذي لا يغيض ، وجدت نقطة انطلاقها المجنح .

وبميناً غير حانثة ، بأني ما أخذت هذا القلم مرة ، ودنوت من سدة عليائها إلا عرتني رجفة ، هي رجفة الشاعر بالجلال المفعم . وشأنه أن يضيق التعبير بسره ، ليشرع للقلب باب تأمله .

في مدينة الأوثان

هنا في مكة .. التي غدت بعد حين مهبطاً من مهابط الوحي لتثبت في الاسلام على أنها أضخم رموزه ، كنت ترى - وكأنك مما ترى على ريشة من جناح حلم - دنيا لا تقع منها العين على آفاق ولا حدود ، دنيا من حيرة الفكر وظمأ القلب الضارب في سراب .

والحيرة حين تنعقد على ظمأ لا تنقطع عنه ولا ينقطع عنها ، تتشقق - وهذا دأبها - عن اثنين : منها في الوهم ، ولكنه الضارع المريض .. ومنها في الخيال ، ولكنه القائم عند منبسط التيه .

وكانت مكة يومذاك ، هي قصة هذا الوهم وقصة هذا الخيال ، فيما وعت من وثنية باهتة غير ذات حرارة ، انبعثت تتداعى على ذات نفسها وتتقطع خيوطها في شكل ازمة روح .. اتخذت عند نفر بادية جحود يعبث ، وعند نفر آخر بادية حياة لا تأمل ، وعند غير

هؤلاء وهؤلاء : بدت آونة بشكل تأمل فقير قصير القوادم غير موفور الخوافي ، فشأنه مهما أعمل انه يسف ولا يعلو . . وآونة بشكل نشدان بهيم يدور بمرارة من نفسه على نفسه ، كالمهد بشحيح « المتنبي » وقد (ضاع في الترب خاتمه) .

على مثل هذه الصورة أو على نحو لا يبعد عنها ، كانت تتبدى جاهلية العرب المتأخرة في مجلى وثنيتها المصوحة الذاوية .

فقد كانت وثنية من ذلك النوع المنزوف كالمومياء ، كل ما منها انها تقلص بشع ، إن لم ترعب فلا أقل من انها لا تروق . . لا تروق العين ولا تستهوي الفؤاد ، لا تحمل رمزاً ولا تنهض اليه .

فلم تكن أبداً خصبة مشرقة ، تتنفس بالغبطة وتشيع فيها حرارة من نوع حرارة الحياة ، لتكون لها القابلية كي تتحد بالاحياء على نحو من انحاء الاتحاد ، أو لتصادقهم على لون من الوان الصداقة تمتع الخيال وتمشي فيه بود رفيق .

بل على العكس من ذلك ، كانت مجفوة لا ترقى بخيالها عن مادتها ، مادتها المنفصلة من حجر بليد قاس . . وهي اذا مدت بخيال ، فبخيال وحشي فيه يأس وفيه بؤس ، ثم لا ظل في مواقعها لقداسة ولا لكرامة .

ولذلك لم يستلهمها العربي على أي نحو من الاستلهام . . وفي شؤون حياته ـ الدائرة منها والدائمة ـ كان يتحداها في عنت اذا صدمت له نزوة ، ويقسو عليها في إصرار وفي موجدة أيضاً مع فورة رغبة عارضة .

وعلى وجه عام ، كانت علاقته بها علاقة خوف لا اطمئنان ، وصلة حقد لا ود ، ورابطة كراهية لا حب . . ومن ثم كان لا يميل الى حسها ، إلا عند ضرورة ملجئة ، وأعني عندما يؤانس من نفسه الضعف حد الانهيار ، والذعر حد الرجفة .

أما هي حين اعتداده حين اطمئنانه ، فانها لا تمر في جوه بل لا يجب ان تمر فيه . . فلا بدع ـ وهي لا تهب عليه إلا بريح جديب ـ أن كان في حسه الاعمق والاقوى ، يود لو تحرر منها .

أقول الاعمق ولا أقول الاوضح ، وهو يرافق الممارسة ويهيج مع التحدي . . حتى اذا آذن لذلك الحس الأعمق أن يتضح وضوحه اللازم ، انبعث بقوة ، وتنفس بهول وانصب بتحطيم .

وهذا لاغيره ، يفسر ظاهرة المقاومة الخشنة التي لقيها النبي (ص) بادئ بدء ، لتنقلب الى ضدها تنكيلاً وإمعاناً فيه ، بعد يسير من التوضيح ويسير من الزمن .

إنها اي تلك الوثنية لم تكن قطعاً تغني أي غنى ، بدنيوات كالتي تمهد في غيرها ، بدنيوات مشبوبة على كل نحو . . فهي للحب ان اردت الحب ، وهي للجمال ساعة تريد الجمال ، وهي للرغبات كيف شئت ، وهي فوق هذا دانية حتى لتخالط في امتزاج ، وقريبة حتى لتتحرك بارادة الشهوة المخامرة .

نعم لم تكن مترعة بمثل هذا الخصب ، بل لم تكن عند طرف منه . . وكان هذا دون ريب من حظ الدعوة الهادية الجديدة ، وكان لخيرها .

فما تملك مثل هذه الوثنية مقاومة أو نصيباً منها ، وهي اذا لبست أرديتها وشدت على نفسها بعض صورها ، فليس لانها قوة حقاً ، بل لان في طبيعتها طبيعة الهشيم وما له من لهبة سريعة الاشتعال بعيدة السطوع . . ولكن في اشتعالها وسطوعها معنى الرماد ، وفي سرعتها سرعة الفناء .

إن المقاومة الحقيقية تقتضي الاعماق ، وتلتمس الجذور المغورة المتمادية . . وما كان الهشيم هشيماً ، إلا لانه جاء قدراً من الورق أي الشكل وما جاء قدراً من الجذر أي الحقيقة .

فلم تعترف به التربة لتعطيه ، لانه لم يعرفها ، لانه لم يتحد

باغوارها اتحاد الوجود . . فظل - على انه يغطي منها الأديم ويكثر فيها كثرة حباتها - شحاذة في النبات . . والتربة يوم تسخو سخاءها الأندى ، قد تفسح له في مجال التبني ولكن ليضيق عنه رحمها في مجال البنوة .

وكان لتلك الوثنية في نفس العرب حظ هذا الهشيم ، ليست تندفع فيها اندفاعها إلا بمقدار ، فظلت « شحاذة عقيدة » مثلما هو الهشيم « شحاذة نبات » .

وماذا تحسب وراء هـذا ، وانت تجد من كرامة محلها وقداسة منزلتها من الوجدان ، ما تطالعك به روايـة : تشهدك رجلاً منهم يضرب بصلف وكبرياء رأس صنمه بقداحه ، حين خرجت على غير ما يرغب ويهوى . . واخرى تشهدك آخر ، يأكل في رغبة معدته رغبة معتقده . . وثالثة تريك بين هذا وهذا ، وجه رجل أبصر ما ملأه سخرية واشتد به هزءاً ، فما تلبث أن هتف :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

الى روايات لا تحصى ، وكلها تضع تلك الوثنية موضع القلق ، وتقدمها فى نسيج خلق . . ثم تنعطف لتريك مكان البرم بهـا فى غير حد من نفوس القوم ، ومكان الضيق باشيائها في ازورار وتجهم .

وفي النهاية نخرج لنا تلك الروايات ، عربي الجاهلية ذلك البعيد ، انساناً لا قداسة لشيء فوق ذاته ، ونعني : الذات في نطاق الجسد وما يرشح به من إملاءات . . فيها من عمل الأعصاب ، وفيها من تحيز الشعور بالوجود .

فقد رأينا عند امرىء القيس اية قداسة هي قداسته لوثنه ، تلك التي ذابت في وهج أوار الانتقام وتحت حرارة الرغبة الحاقدة .. مثله رأينا عند عمر بن الخطاب ، يوم أكل صنم التمر في غير مبالاة بقداسة ولا اكتراث بمثالية ، كبير أمرها عنده انها كورقة الخريف ذاوية شحطاء .

وما كان ذلك لشيء في النفس العربية يجعلها لا تدين بمثل أعلى ولا تلين له ، وترتفع بمحلها ليقع كل معنوي دونها .. بل لمكان هذا الفقر المرعب فيها من شأنه أن يخصب أديم المعتقد ، ويترع مجاريه في جنبات النفس التي ظلت ظامئة حرى .

وأنت حين تطعم الظمأ الظمأ وتندي اللهاث باللهاث ، تصنع طبيعة النفس صنعاً للجحود .

وهنا تبرز معجزة الدعوة النبوية على أكمل وجوهها ، حين تدرك انها لم تعمل عملاً : كل ما منه ، انه مسح بيد ليصبغ بيد . . وانها

فرغت الى نفوس تخصبت فيها ناحية الوجدان موئل المعتقد ، لتنقلها نقلة فقط ، عن نقطة ارتكاز الى نقطة ارتكاز جديد .

وإنما كان عمل هذه الدعوة الكريمة عمل خلق وتطهير وتخصيب ، عمل صهر وصقل لنفوس عقّدها الجحود ، وترك فيها ازمته تشتعل وتدور بقيضها اللافح . . وهو لا يدع ندى أو مسه ، ثم لا يسكت عن طبيعة هذه النفوس إلا وقد أحالها صحراء قانية تفهق بما تبلورت اليه من رمال .

والرمال تربة صنعها اللافح حبات ظمأ ، فهي لا تروى ، ومهما امتصت من سحائب تشد سحائب تظل لاهثة ، ثم لا تحول بما امتصت أرضاً طيبة .

والنفس المرملة ، أو النفس التي استوت من طبيعتها على رمال ، تظل ملعب أعاصير لا تثبت من أمرها على حال . . فهي تنزلق ولا تستقر ، ثم لا تعرف إلا جشع الأخذ وشح العطاء .

نعم هنا تبرز معجزة الدعوة الخالدة ، التي صنعت الواحة كل الواحة ، في الصحراء كل الصحراء .

ولنريك بعضاً من مآتي هذه الوثنية البليدة ، الجاحدة حتى لحقيقتها ، الضائقة حتى بوجودها ، نكتفي بمثال من أمثلة كثيرة

ونجتزيء بشاهد من شواهد لا تحصى ، وما اختيارنا اياه لانه أبلغ دلالة من غيره ، ولكن لأنه يتصل بالشخصية التي هي موضوعنا من بعض الجوانب .

(حدث ابن إسحق ان قريشاً اجتمعوا في عيد لهم يوماً عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به .. وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم اربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض . قالوا أجل .. وهم ورقة بن نوفل بن عبدالعزي ، وعبيدالله بن جحش بن رئاب ، وعثمان بن أسد بن عبدالعزي ، وزيد بن عمرو بن نفيل . فقال بعضهم لبعض :

تعلموا والله ، ما قومكم على شيء ، لقد اخطؤا دين ابيهم ابراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .. يا قوم التمسوا لانفسكم ، فانكم والله ما انتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم .. فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب ، واما عبيدالله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم فلما قدم المدينة تنصر ، واما عثمان بن الحويرث

فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت عنده منزلته .

واما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤودة ، وقال أعبد رب ابراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

وكان يرى مسنداً ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح أحد على دين ابراهيم غيري . ثم يقول :

اللهم لو اني أعلم أي الوجوه احب اليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه . . ثم يسجد على راحته . وله شعر كثير بهذا المعنى ومنه :

أرباً واحداً أم الف رب ... أدين إذا تقسمت الامور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أرور
ولا غنماً أدين وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت ، وفي الليالي معجبات ... وفي الايام ، يعرفها البصير

واستمر به شأنه حتى خرج يطلب دين ابراهيم ، ويسأل الرهبان والاحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام جميعاً

وعلى أنه شام اليهودية والنصرانية، فلم يرض شيئاً منها، فآب يطلب مكة حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه (١).

هذه الرواية تحمل الينا الكثير الكثير، وتوقفنا على ما نود أن نقف عليه، وترينا بكل وضوح مكان الريب وحدته من النفس العربية ومكان الضيق بهذا الريب، ورغبة التحرر منه على شكل .. ولا بأس بأن يكون أي شكل، فهو أحب وأغنى وأمتع.

ولا تعجل فتظن أن هذا الاستخفاف المرتاب، انما خالط هذا النفر حسب، فكانوا من مجتمعهم الطليعة، ومن كثرتهم الصفوة المختارة.. أما الجماهير الغفيرة الضخمة فقد كانت قانعة مغتبطة بلذاتها ما تمارس من طقوس وتباشر من شعائر، وما تصطنع من عبادات تجد فيها عبارة تأملها.. وما يدرينا لعلها كانت تجد فيها أكثر من ذلك، تجد فيها تعبيراً أتم أوفى.

هذا صحيح، لو كانت الرواية المذكورة هي كل ما لدينا من كوى ونوافذ نطل منها ونستشف من خلالها، ولكن الروايات - وأرينك جانباً منها - كثيرة كثرة مطلقة، وهي كافتها تلح بمكان ذلك الريب المستخف والجحود المتنكر.

---

(١) راجع ابن هشام في السيرة ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٨.

على أن هذه الرواية وان تلك مثالاً خاصاً ، فاذا وضعناها موضع البيان والشاهد ، لامر بعينه ، لتجلى موضحة مبلغ الارتياب وحدته وشبوبه .

وهي في هذا القصد وافية اكبر ايفاء ومعلنة أبلغ اعلان ، بأنه كان ريباً حاداً يتميز بالعنف واللوعة والتساؤل المنطوي على مرارة .. وليس أدل على فجيعة هذه الرزئية في قلوب ابنائها المتحركة فيهم بظفر وناب ، من شخص « زيد بن عمرو بن نفيل » ذلك الرجل المأساة ، وبعبارة اخرى ذلك الرجل الذي كان يحمل المأساة في الضمير ، يريد لو يتخفف منها على أي نحو .

انه يحاول أن يهرب ولكن عبثاً يسعى وعبثاً يحاول ، فهربه منها هرب من نفسه ، وما كان ذلك هيناً يسيراً ، وما كان ذلك مستطاعاً سائغاً .. فجد يوسع الخطوة هنا وهناك ضارباً بين فجاج وسهوب ، يلتمس بقيته الضائع وأطمئنانه الشرود .

انه ليس بمطيق أن يسكن الى ما عنده ، وهو حين يسكن اليه أو حين يحاوله ، فانما يجمع نفسه الى حيرة بالغة الاسى لا تنتأ تدور عنده مثل مر الشوك اللاهب وتتوهج في خياله « كاعراف الرماح » على حد تعبير والبة بن الحباب في القديم .

وأي طعم هو أكثر مرارة وانفذ واخزة من قوله :

أرباً واحداً أم الف رب أدين اذا تقسمت الامور

حين تدنيه الى نفسك وتستشعره من قريب . لاشك ، تجد تفجعاً وتجد لوعة ، وتحس بنفس انطوت من ضميرها على مثل شواه له طعم الاحتراق . . ثم لا ريب في انك واجد أيضاً حرجاً كثيراً وضيقاً بهذا الحرج ، وتفادياً منه بالاستسلام المستغلق في عبارته الاخرى :

(اللهم لو اني أعلم أي الوجوه أحب اليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه . . ثم يسجد على راحته) . . .

وما نحن الآن من هذا الأمر على كبير شأن ، فانه سبيل من يبحث الجاهلية وقيمة وثنيتها ، ويؤرخ لهذه وهذه . . أما هي في عملنا فلا تخرج عن انها نقلة يقتضيها البحث وقنطرة يفرضها العبور ، الى تبين الموقف الذي اتخذته السيدة خديجة لنفسها من وثنية الجاهلية في ظل الوثنية .

يقطع الباحث بان حسها لم يكن الا من نوع الحس العام الذي حاولنا عرضه في رقعة سريعة ، وإدناءه اليك في إلمامة قصيرة . . ثم اضف الى هذا ، انها لم تكن بعيدة عن جو هؤلاء الصفوة الذين اثبتنا لك من خبرهم .

فهي أدنى ما تكون من ورقة بن نوفل بن عبدالعزى ، ودنوها منه كان على نحوين من الدم والود الفكري . . وكان هذا الود أو القرابة الفكرية ينتزع اعجابها به انتزاعاً ، ويحملها على كل لون من الوان الخلود اليه في اشياء من السكينة واشياء من الأطمئنان . . وبالغ عندها ، حتى باتت له وهي أشبه بتلميذة لا تبرح تعتمده في كل ما يعرض لها ، من أمر نفسها وشؤون دنياها .

فلا جرم كانت من هذه الناحية أرهف حساً بما لاشواك هذه الوثنية من وخز ، وأصح ادراكاً لما في جوهرها من تهافت ، واترع فؤاداً بالتلهف والشوق ، وأرحب نفساً للتقبل المطمئن ، لتقبل رسالة الوحي الجديد . . رسالة الخلاص .

وهذا ليس تقديراً نحن نقدره ، بل جاءتنا بجانب منه المصادر . . فما اتفق لها من عهد الجاهلية لم يكن مكفوفاً عن النظرة المتأملة ، ولا مقطوع الصلة بما يراود الطليعة المنتخبة . . هذه الطليعة التي تغدو من كل جيل مستقرما يجيش به من أحلام وامان وتطلعات بحيث يكونون عبارته البارعة الاداء ، وموئل ما يخامر الناس من مناغم حب ، وحنين هو رجع أصداء المجهول ، واشواق كبيرة تريد ان تتكشف البعيد .

والسيدة كما أنبأناك وجهدنا في ان ندني اليك ، كانت من هذا النفر « الطليعة » . . وعلى أي حال ، لم تكن تبعد عنه في مذهب تأملها وتفكيرها ، وفيما تختزن من تصورات وأحاسيس ولفتات مشاعر .

كان من حقها ـ وهي الموهوبة التي كأنما السماء تعدها للنهوض بعبء عظيم ـ ان تفكر ، وان تذهب في مدى تفكيرها عميقاً عميقاً . . وكان من حقها ان تصل فكرها بأفكار الآخرين الذين ينحون هذا المنحى وينهجون هذا المنهج . . كان من حقها ذلك لتتخذ لنفسها موقفاً فكرياً معيناً ، يكون أقرب للرضا وأدعى للطمأنينة . لا سيما وكل ما تحفل به البيئة وتقدمه من مواد فكرية لبناية العقل ، لم يكن باعثاً على الثقة بل على العكس ، محرضاً على اللجاجة اللاغبة والاندفاع في تيار تساؤل عريض .

وبالفعل مالت مع هذه الرغبة المستوفزة في نفسها ، ولم تقنع به ميلاً فقط ، بل انبعثت تشبعه بما تسعفها به الوسائل الميسورة ، وما لم تكن تنهض وسائلها به من ذلك تلتمس اصابته بالسؤال .

فكنا نراها ـ وكثيراً ما نراها ـ غادية رائحة ، تقصد مثوى

مرشدها الذي تستمده « ورقة » ، تستنبئه تارة عن كنه رؤيا ، وتارة عن مستغلق سر .

ويكفي لنعرف أي نوع من الافكار كان يشغلها ، وأي نوع منها كانت بالفعل واقعة تحت سيطرته ، ان نستعرض بعض مناماتها التي سمحت بحملها الروايات الينا ، ولا استعجلك بسردها فستمر بنا على منازلها من الموضوع .

ولكن المهم هنا أن نشير الى انها لم تكن تخلو من هذه المواد الاولى (الآله ، السماء ، الاوراح ، النور) ، وواضح أنها موادتتصل بنوع معين من الافكار ، لا سيما حين نلجأ في تفهمها الى منهج التحليل الحديث الذي يقطع بنوع معين من الافكار كان يرجس في نفسها ، هو ذلك النوع الأملي الخالص .

إنه يقطع بهذا ، ويقطع عندها ايضاً باختزان ضخم لاحساسات وخلجات ومشاعر بل ولتجربات روحية واخرى عاطفية .
والملفت في أحلامها ، انها كانت دائماً بيضاء مشرقة . . ومعناه أن نزوعها على رغم ما يصدمه كان مشفوعاً بالأمل المحض ، وترقب الانتصار .

على شفاه الزهر

في بعض ولائد الجمال ، ما يخلب الجمال نفسه ..

إذا صح ان للجمال حساً يضعه هذا الموضع من الانفعال ، ويجري فيه بهذه السنة التي نخضع نحن لأحكامها ، ونتقلب في دائرة مؤثراتها .

وما يدرينا ان لا يكون الجمال على حس وحياة ؟ يتذوق مثلنا ، فيحب ويكره ، ويدنو في هوى ليبالغ في فتنة .

نعم ما ادرانا ان لا يكون كذلك ، وهؤلاء « الأغارقة » الذين وعوا الجمال حق وعيه وباشروه في انفسهم مباشرة ، انما تصوروه وصوروه ، على انه حياة تفنى بالعاطفة مثلما نفنى ، وتصيب منها مثلما نصيب .

ومهما يكن ، ونميل الى الاقتصاد في التعبير — فنحن نجد لدا من موائل الجمال إزاء شعور مختلف ، يتنوع على مقدار ما في الطبيعة من أنواع .. فيكون خصباً ويكون غير ذلك ، ويكون بهجة ،

ويكون روعة ، الى إحساسات لا تنهض بها الكلمات إلا بقدر وقدر يسير .

ويظل من وراء هـذه كله ، أخلب الجمال هو ذاك الذي يبعث قضية ويقوم من نفسه على عقدة . . إذ يسمح لشيء آخر غير المؤاد بالتـدخل ، إنه يسمح للعقل بأن يتدخل فيه بعنصره الفكري ، فيضيف اليه معنى لم يكن من شأن الجمال ـ وطابعه البراءة ـ ان يعطيه ، معنى يجيء جديداً في الجمال . . حتى في حس الجمال نفسه .

حقاً إن ما يخلبنا في الوردة ليس هو هـذا الجمال الساذج ، من العبير والصفاء ، من الأضواء والظلال . . بل هو هذا ، وشيء آخر يتدخله احدث قضية ، إنه ذلك الشوك الملتف المكتنف ، وهو ليس من طبيعة الورد ولا من سره .

إنه يتدخله نقل قضية جمال الوردة ، من بساطة الى تعقيد ، من وضوح الى غموض ، ورسم تساؤلات واستفهامات ، وبث مشاعر واثار خواطر لا طاقة لبساطة الجمال بها في هذه وهذه .

فأمامك من الوردة في زهرها وشوكها : لين وصرامة ، افترار وتقطيب ، سماح وتجهم ، حب وبغض . . وأمامك من هذا كله ، أشياء تدنو من اشياء ، وبتعبير آخر اشياء تثيرها اشياء .

وإذا انت من تداعيها كلها وتواردها جميعها ، امام عقد كأعمق ما يقع لك وادق ما تدفع للفكر . . وإذا أنت من الوردة حيال حياة كاملة هي تحفل بكل ما تزخر به الحياة ذاتها من ارتسامات : إن شئت ابصرتها ماسي ولكنها جميلة ، وان شئت ابصرتها مظهراً من التأكيد - تأكيد الطبيعة - بأن القوة للحق ، وان شئت سموت فأبصرت : بأن الشوك ايضاً يتشقق عن طيب ، وان قلب القبح قد يفيض بأبرع الجمال انداءاً ومعاقد اضواء .

ولا تظن انها - في مرورنا العابر غير الشاعر - لا تهجس عندنا بكل هذه الهاجسة ، وتهمس لنا بكل هذا الهمس .. بلى ، انها تفعل ، ونحن نصيب منها في وضوح او غيره ، وعلى مقدار ما نصيب منها نقف متأملين مافيها من سرحات ، مأخوذين بما قامت عليه من عقدة ، عقدة جمال .

وانا ما اذكر يوماً وقفت فيه ازاء زنبقة الغور - هذه الزنبقة الشاردة التي كأنها اعتزلت في قصد ، وطلبت النجوى في رفات عبير تسر بها سراً يبلغ الجهر . . وتلمم نفسها في المنعرج كأنما لتبلغ في وثبة القمة - الا وتأودت على كف احاسيس تأود الأملود ، لا أحقق منها الا ان بعضها نشوة ، وبعضها امتلاء بشيء كبير ، بطوف زاخر

هو اكبر من كل كياني .

إنها جميلة دون ريب ، ولكن خلب جمالها يقوم في ان تظل حيث هي من المنقطع ، لذي لم يتراخ بها الى اسفل ولم يشد بها الى فوق . . هي ان تظل كأنها مشدودة وكأنها تتململ مستشرفة العلاء ، واعني ان تظل في هذا القلق الذي تثيره ، وترسم خطوطه في حركة صريحة .

فهذا المنقطع اكسبها عنصراً جديداً ، جعل في جمالها قضية واشار الى حادثة ، فهو اذن جمال موحٍ يزرع الخواطر في لفتة الأمل .

* * *

واذا انتقلت بهذا المفهوم من دائرة الى دائرة - إذا انتقلت به الى دائرة الحي الشاعر بوعي الشعور ، نجد انه لا يختلف عليك في قليل او كثير ، نجد جمالاً يتفاوت عن جمال بما يتضمن من هذا البث الخفي .

والسيدة خديجة ، ما كان اقربها واشبهها بزنبقة الغور ، فيما اجتمع لها من جمال حفلت الروايات (١) بأخباره ، وفيما اجتمع عليها

---

(١) راجع كتاب انسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي ج ١ ص ١٣٧ ، والاصابة لابن حجر ، ج ٨ ص ٦١ - ٦٢ .

من ارزاء جعلت حياتها مسرحاً يختلف بأعاصير ما كانت تنقطع الا لتتصل ثقيلة مرهقة .

كان جمالها من ذلك النوع الريان الأخاذ : صباحة وجه ، ووضوح قسمات ، ونشوة لحظ . . يزيد به حديث عذب ، وقلب مفعم بالخير ، وخلق مجتمع ، وعقل بعيد الغور ، وتدبير استوى على حزم واناة .

فكانت في محل الادلال من ذويها لذلك كله ، وابوها «خويلد» - وكان يرى تنافس سراة قريش واشرافها على طلب يدها - يتناهى به زهو ، يبرز في شكل شح بها حيناً ، وحيناً بشكل موازنة وتخير .

واستمر هؤلاء على الحاحهم واستمر هو على تريثه الذي طال به ، ثم عقد امره وزفها الى « ابي هالة هند بن زرارة التميمي (١) » وكان سيداً على جاه وغني . . فسكنت منه الى ود وارف ، وانجبت له « هالة وهنداً (٢) » ، فازدادها تعلقاً ومقة . على انها لم تلبث

---

(١) في الروايات خلاف فيمن تزوجته اولا منهما ، واعتمدنا هنا ما جاء في المواهب اللدنية للزرقاني وان كان الاكثرون من اصحاب السير والتواريخ على أن الأول منهما كان عتيق بن عائذ ، ولا مجال هنا لبيان وجه الترجيح .

(٢) سميها كذلك باسماء الاناث على عادة العرب من وضعهم اسماء الاناث للذكور وقاية من الحسد . وهالة ادرك الاسلام وكانت له صحبة . واما هند فقد =

ان خُبِّئت بـه ، وهي ارجى ما تكون له وارجى ما تكون منه ، واستحال فى ومضة ما كانت تملأ به عينيها ، كخيط نجم ابتلعه ليل لاحد لعمقه .

هي بلحظة او تكاد تكونها - غربت فى جوها حياة مطمئنة مغتبطة بكل الوانها ، لتستقبل حياة متوهلة قلقـة بكل الوانها . . فما تسلبت ، وما خرج بها فرط الأسى ، وإن آدها ما لقيت منه .

إنها مالت تدفن احزانها فى صمو صبر وكبرياء احتمال ، وتمسح ما بها من عمق الجراح بشفاه طفولة كانت تتفتح فى يديها نظرة عذبة .. طفولة هي مدعوة لحمايتها ، وهي تطالبها بالكثير من وجودها ، تطالبها بالتضحية توفيراً لهنائها وتعزيزاً لاحلامها .

فما كانت لتخنق بأساها الفاحم ، بسمة صغيرة ينبغي لها ان

= طالت صحبته وكان وصافاً روى عنه الحسن ابن اخته فاطمة (ع) حديث وصف النبي وهو ابلغ ما روى ، وقتل مع علي (ع) يوم الجمل وكان يفخر بقوله (انا اكرم الناس أباً واماً وأخاً وأختاً ، أبي رسول الله لانه زوج امه واخي خديجة واخي القاسم واختي فاطمة) . وعند السهيلي في الروض الانف أنه مات بالطاعون في البصرة وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين الفاً فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته فصاحت ناعيته (واهنداه بن هنداه ، وأربيب رسول الله) فلم تبق جنازة الا تركت واحتملت جنازته على أطراف الأصابع اعظاماً لربيب رسول الله (ص) .

تفتر ، بل من حقها ان تفتر مزهرة مشرقة . وكذلك انقطعت الى شؤون ولديها تمحضها الرعاية اكرمها ، والحنان اعذبه وانداه .

وعلى انها خلت بينها وبين الناس ، منصرفة الى ما هي فيه من عبء : بعضه خفيفة نفس وبعضه صنع طفولة ، كان لا يكف فتيان قومها عن التماسها ، وكل يريدها لنفسه . . يغريهم بها غير شبابها ووسامتها ، قوة شخصية بدأت تطل وتبرز ، ثم وفرة في مالها .

ولكن كيف السبيل الى ان تفكر في زواج جديد ، وهي لما تزل تذكر « أبا هالة » بخير ما فيه ، ولما تزل طفولة ولديها تطالبها بكل اهتمامها وحدبها .

غير ان أباها « خويلداً » وعمها « عمرو بن اسد » الحاها بدورهما ايضاً مع الملحين الكثر ، [فأبوها وعمها شيخان ، هامة اليوم او غد] ، وهي في حاجة الى كنف تستدفع به وتفيء منه الى ظل ظليل .

وفي غير نشطة ، وبعد لأي ، رضيت بأن تجرب حظها من جديد ، فاقترنت الى فتى من علية مخزوم واجوادها ، هو « عتيق بن عائذ » (١)

---

(١) هكذا بالهمز أو بالمثناة التحتية والذال المعجمة في رواية ، وفي رواية ابن عابد بالباء والدال .

فأعطته من ذات نفسها وبرها ما يخلق بمثلها ، وكان ان استولدها طفلة دعتها « هنـداً (١) » ، وكان ان اهتبله القدر منها في هذه المرة ايضاً ، كأنها باتت والفجيعة على موعد .

فلا بدع أن قار في قلبها اتون حزن ، كان له في شؤون عينيها مجاري دمع لا يرقأ .

والسيدة خديجة ان حزنت حق لها ان تحزن ، ومرير الحزن ايضاً ، فالأسى يوقظ الأسى ، والمصاب يحيي المصاب ، وابو هالة غداة اليوم كأنما لم يفصل دونه امس بعيد . . فذكراه تخطت حواجز الذكرى لتحيي ايضاً في ندوبها الطرية ، واخزة وخزها طائفة بأشواكها .

وانها لفي معتنق اللجة تعلو بها وتهوي ، وتكشف حولها وترق ، قضى والدها ، فلم تمسك من نفسها جزعاً واشفاقاً . . لقد جرعت الغصة اكؤساً دهافاً ، جرعتها حتى الثمالة .

فكانت ـ من أمرها مع القدر وأمر القدر معها ـ صنو زئبقة الغور ، فيما تبث من إيحاء وتبعث من شؤون .

---

(١) ادركت الاسلام وكانت لها صحبة وتزوجت صيفي المخزومي وكان لها منه غلام اسمه محمداً .

وجالها المرزأ او المخدش بالأرزاء ، يقفك منه عند عقدة تأمل ، تثير فيك كثيراً ، وتفتح قلبك على صور غنية بجمالها غنية بآلامها ، وهي في هذه وهذه مشوبة بأسرار . . وما استغلق ذلك حتى على عقل الجاهلية ، فكانت تدعى اتناءها لمكان هذا الحس « بالطاهرة (١) » .

نعم هي صنو زنبقة الغور وليس فيها اتفق لها من مآس جعلتها بعيدة عن دنيا الناس ، معتزلة في المنقطع البعيد ، تأنس الى وحدة قاسية تطعمها من آلامها . . بل كانت كمثلها فيما اجتمع لها من فكر باعد بينها وبين الآخرين ، وتزيده هذه الآلام حدة واستعاراً .

فقد كانت من عهد الوثنية - كما عرفنا - في المحل القنق ، وكانت مستفيضة بل منتسبة الى لون ما يفكر فيه ذلك النفر « الصفوة » . . وتدار كنها هذه الأرزاء ، حمية حمية ، ومن شأنها أن تحمل النفس حملا على التأمل ، وتصنعها صنعاً للتعرف .

ألم تكن من حياتها التي نعرف ، في معركة قاسية مع القدر ، هذه القوة الخفية المخيفة .

فما هي هذه القوة ؟ . وما حقيقتها ، وعلى أي ناموس تسري وتسير

---

(١) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٣٧ وهو مستفيض في غيرها ، كالاستيعاب لابن عبد البر وأسد الغابة لابن الاثير .

ولم تختلف في مواقفها : فهي بسطة كف عند هذا وانقباض كف عند ذاك ، وهي هنا نعماء دون عرف وحد وهي هنا بأساء دون عرف وحد ، الى مساءلات كثيرة بينها وبين نفسها ما كانت تجد جواباً عنها .

بيد انها تصطفق في ضميرها وتصطخب ، وتزدحم في رأسها ازدحاماً مراً ، يجعلها دوماً كمن هو في شأن مع نفسه . . تعالج ما وسعتها المعالجة ، وتقدر ما أسعفها التقدير ، وتفكر ما أطاقت .

لقد كانت ترى ظاهر القدر ، فتعمى بسره وتنوء بثقله . . ومن اين لها ان تعرف خافيته ، وأنه إنما يذهب بها مذاهبه تمليلا لطبيعتها بالترفيع ، واعداداً لحقيقتها بالصقل والتهذيب ، وتفجيراً لينابيع ذاتها بالزلزلة والتخديد .

نعم من اين لها ان تعرف سر قدرها ،
وأن هذا الابتلاء كان سبيلها الى ذلك الاصطفاء .

* * *

انتهت - كما رأينا - الى عزلة صورت بها نفسها ، وكانت عزلة وجدانية خالصة ، فلم تقطع صلتها بالناس وباشياء الناس ، ولم تجف

الحياة (١) وما الى الحياة . . بل ظلت قريبة من الناس قريبة من الناس قريبة من دنياهم ، آخذة بأساليب حياتهم تعمل كما يعملون أو لعلها تعمل وتمعن أكثر مما يعملون ويمعنون .

فهي تشعر بمسؤوليـة من دفعت الى الشعور بمسؤوليتهم دفعاً ، تشعر « بأفراخ زغب الحواصل » يطالبونها بكل شيء ، ومن حقهم ذلك ، فلم تتردد تسعى لهم مثمرة أموالها على وجه من وجوه التثمير منمية ثروتها على ضرب من ضروب الانماء ، مغتبطة بأنها لم تضعف على ثقل الواجب ، قانعة بكونهـا أبدت وتبدي بأنها أكثر من الكارثة .

كانت صلتها بحياة الناس في حدود أساليبهم اليها ، أما فيما وراء ذلك : في أفكارهم عنها ، وتقبلهم لها ، وإقبالهم عليها . . فكانت في عزلة مغلقة ، تعيش بوجدان آخر غريب ، بوجدان يجوب (٢)

---

(١) ورد في كتاب روضـــة الاحباب انها كانت تحوط نفسها باسباب الرفاهية فترفل في حلل فاخرة من منسوجات الهند وتقطن منزلا فخماً ذا طابقين يسرح فيه عبيد واماء ومؤثثاً بالرياش والمقاعد المطعمة بصنوف العاج والابنوس والصدف من صناعة دمشق وغيرها من مراكز الصناعة في تلك الأيام .

(٢) يظهر هـذا في قولها للنبي (ص) لما اخذت يده تضمها الى صدرها (بأبي أنت وامي ، والله ما أفعل هذا لشيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي =

ساحة المجهول ، يحاول اقتحامه ويأنس بغشيانه ، فان لم يكن فبأستشفافه .

كانت تعيش بفكر غير فكر أولئك الذين يشاركونها الحياة من أبناء قومها ، ولغاية غير غايتهم ، وبأحلام أمانٍ غير أحلام أمانيهم .. لقد صهرها الألم فلم تعد ترضى بالحياة على انها هذا الشيء الساذج ، ولم تعد تقنع من غبطة الحياة بهذا القدر الذي يقنع به الآخرون .. فانقطعت لأحلامها وكانت احلاماً كبيرة مجنحة ، واستبدت بها وتزايدتها ، فهي ترودها في صحوة وغفوة ومع يقظة وسبات .

فكان من أحلام يقضتها ما جاءت به الرواية ، (من أن نساء قريش بينما هن مجتمعات في عيد لهن عند البيت ، اذ تمثل لهن رجل ، دنا فنادى بأعلى صوته :

يا نساء مكة قد آن ظهور المنتظر ، فمن منكن ستكون له ؟ . . فكذبنه ورمينه بالحصى ، وكانت خديجة بينهن فلم ترمه كما فعلن ،

= الذي سيبعث . فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي وأدع الآله الذي سيبعثك لي فقال النبي لها والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا اضيعه أبداً ، وان يكن غيري فان الآله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً) . . السيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٠ .

بل لبثت في مكانها مطرقة واجمة ، لا تستطيع حراكاً مما انتابها من دقات قلب (١) .

السير وكتب التاريخ تورد هذه الرواية على نحو من التأكيد بأنها حادثة وقعت بين كل هذه الذعرة والمنادي الغريب ، وقد يكون ذلك حقاً لا لبس فيه فليس مما يستبعد وقوعه .

وقد يكون واقع الحادثة ليس الا بين السيدة جديجة وبين نفسها أي صورة من أحلام يقظتها ، رأتها جلية واضحة ، وسمعتها أيضاً جلية واضحة ، وتداركتها برجع الحس دقات قلب وقعت ملياً تحت ميدانها الراجف .

نعم قد يكون واقع هذه الرواية واقعاً نفسياً عند السيدة الكريمة ليس في شيء من طبيعة الزمان والمكان ، وجلاه لناظرها مشهداً ممتداً عريضاً ما هي واقعة تحته من تيار روحي عميق .

انا لا أستبعد أن يكون هذا كما لا استبعد أن يكون ذاك ، وان كنت اجدني أكثر اطمئناناً الى انه من نوع احلام اليقظة عندها ، لأنه أكثر انسجاماً مع ما كانت فيه من يقظة حسن رهيف .

---

(١) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٩ ، وانبتها ابن حجر في الاصابة عن المدايني .

أضف الى هـذا ، ما كان يساور فئات كبيرة من الجاهليـة يومذاك ، من هـدأة انتظار شاخصة ولفتة ترقب مشتعلة ، لفكرة خلاص في شخص مخلص .

وهـذه الفئات احسّتها ضرورة في عقم بناء المجتمع ، وفي عقم روحه ونزوع تدينه . . وألفتها في روعها بكثير من القطع والتأكيد طائفة من أهل الكتاب كان العرب يومذاك ينزلونهم منزلة المعرفة وثقتها . . وهتف بهـا نفر غير قليل من رجالاتهم . . وتغناها لفيف من شعرائهم بينهم امية بن ابي الصلت حتى لوقف جل شعره عليها .

اذن كان في نزعة العصر كله هذا الترقب ، وعند الطليعة لم يكن ترقباً فقط بل احساس بمخاض .

وطبيعي - والسيدة خديجة محمولة على مثل هذه النزعة العامة ، ومعطية اذنها في لذة لأغانيها ، وفاتحة قلبها في هوى لرؤاها - ان تسكن في عزلتها المفكرة الى أحلام تعيشها وتجد نفسها فيها ، الى احلام بيضاء غاية في البياض نقية غاية في النقاوة ، الى احلام مواسية لجراحها العميقة .

وسنرى بعد بأية حرارة هي تضم يد النبي الى صدرها ، راجية وليس شيئاً الى الدنيا أو شهوتها (إن تكنه فأعرف حقي ومنزلتي ،

وأدع الآله الذي سيبعثك لي) . . انها بدت ظمأى الى معنى إلهي يطيب لها اشراقه ، فياتي بعيداً بعيداً ، ما عليها من ظلال كثيفة هي لا تفتأ تشعر بثقلها وإرهاقها .

مثل هذا هي ترى في أحلام يقضتها ، ومثله ترى فيما يرى النائم . . فقد جاءت الرواية بأنها رأت (كأن شمساً عظيمة تهبط الى منزلها من سماء مكة ، فيغمر ضوؤها ما يحيط المنزل من أماكن قصية وبقاع . وتهب من نومها مضطربة ، وتسارع الخطو نحو دار ابن عمها « ورقة » تقص عليه ما رأت بأسارير واجفة ، ويبدؤها بسر الرؤيا بوجه متهلل ، وان تلك الشمس علامة مجيء المنتظر وحلولها بمنزلها علامة أنها نحضنه وتبيت أدنى ما تكون منه) .

هي رؤيا ولكن أسلمتها الى نشوة ، أو قل الى طوفان روحي يحرك أقصى أمنياتها ، ويشعشع بالري كاسات نفسها العطشى .

هنا . . تسكت السير وكتب التاريخ ، فلا تقدم لنا السيدة خديجة في حقيقة ما كانت تحلم به ، وفي لون ما كان يراودها من أمل . وفي غير الحلم وغير الأمل ، تقدمها في صور من أفكارها ومشتهيات روحها الكبيرة ، وبتعبير أخصر : في كل ما غنيت به عزلتها ، من حياة قلب ، وتلهف وجدان ، وتطلع فكر .

تسكت هنا السبر فلا تؤرخها هذا التاريخ أي التأريخ الروحي ، فتحفظ ما كان لها من تجارب وجدانية وما كان لهذه التجارب عندها من ارتسامات . . ونحن حين نفرغ لها اليوم ، فانما نحاول ان نستقطر نتف الأخبار استقطاراً ، وان نتعلق بأشاراتها بأكثر من حروفها ، وان نمعن النظر فيما تلوح اليه بنصيب أكبر جداً مما تلوح به .

وعلى هذه السنة من النفاذ المعمن في الباطن أقول : ان عزلتها المتأملة وما اتفق لها فيها ، جعلتها تحس واحساساً قوياً بأنها كائن غير عادي . . تحس بأنها منتدبة لرعاية رسالة عليا ، فيها من وجد قلب الأرض وسخاء قلب السماء ، فيها قبس حنين من هنا على قبس حنين من هناك ، اتسقا في لحن كان في سمع الأبد اذ كان في سمع الأزل .

باتت تطمئن اطمئناناً بالغاً الى انها منتدبة هذا الانتداب ، لاسيما وكل ما صادف ووقع لها كان يؤكد عندها هذا الأطمئنان .

بيدانها رسالة لا تحدد منها ولا تدرك من كنهها ، الا انها معزية تداري كلوم قلب الانسان وتمسح ما انطوى عليه من مدة وما يجري فيه من صديد .

هي لم تكن تحدد منها الا انها شيء جميل ينشر البهجة ، فلا بدع - وهي المشتملة على كلوم شتى : بعضها في القلب ، وبعضها في الفكر - أن مالت نحن الى هذه الرسالة اي الى معنى الخلاص فيها .. وما استمر حنيناً ، فكان يتزايدها يوماً بعد يوم ، فهو وجد ، وهو هيام ، وهو تعلق وانجذاب .

وكما لم تكن تحدد من أمر هذه الرسالة ، لم تكن تحدد من يكون الرسول . . ولكنه - وهو لا ينفصل عن الرسالة كالبرء لا ينفصل عن الدواء وبرغبة البرء نحن نرغب به - بات في مكان وجدها وهيامها وتعلقها .

هي لا تحدد من هذا الرسول ، الا انه يهب بهاء الرسالة ، ندي في مثل نداها ، جميل في مثل جمالها . . فتتحت له قلبها كزهرة تستقبل برغبة العبق ندى الفجر ، لأنها في حاجة الى ان تميس بالطيب وتهدهد بالعبير .

* * *

في حي قريش - وحي قريش كمثل حي منكش ، يقع الخبر في اية أذن ساعة وقوعه ، ولا تمشوفاشية في جهة منه حتى تغدو في كل منازله - كان الناس يتحدثون ويوسعون في الحديث :

كم هو رائع هذا الفتى؟! وكم هو رائق حين يغشى العين، وعذب حين يغشى السمع؟!.

ثم يتحدثون ويوسعون في الحديث: ولكن ما شأنه؟ ما به؟.. انه شاب ملء عين الشباب ولكنه عزوف يتحامى كل ما للشباب من مناسك وفروض: في اللهو وما نجده لاهياً، في المجانة وما استخفته مجانة أو لون فيها.. ويمر بهم، فيشغلون عن حديثه بتأمله.

كان الفتى محمداً، وكان الحديث المورد الحديث عنه.. وهو في دارة مثله في اخرى، حديث حب واعجاب يشوبه تساؤل حائر واستفهام مستغلق لا ينقطع الى صواب.

وكانت تفاريق هذا الحديث تتوزع لتجتمع عند السيدة خديجة وتنتشر هنا وهناك لتجد الملتقى في دارتها.

والسيدة تصغي اليها في نشوة لا تدري مبعثها، وتسعى سعيها الى الاستزادة منها بدافع خفي غامض لا تملله.. على أن مشاعرها بدأت تتضح شيئاً فشيئاً، وملامح أحلامها المبهمة بدأت تتدانى لترسم كلها وجهاً، كان وجه هذا الفتى.

ولم لا يكونه؟.. ساءلت نفسها طويلاً وانتهت الى اطمئنان وتأكيد.

نعم لم لا يكون هو أياه ، ذاك الذي ترتقبه ، وأجيال ضخمة من ورائها ترتقبه في لهفة الانتظار . . إنه من هاشم وفيها اليتبوع ، وانه ما يتحدث الناس عنه وهي ملامح لا تجتمع للعاديين .

واتصل بها همس من هنا وهمس من هناك ، بغرائب تقع له وهي ليست من عالم الناس ، فازدادت ثقة باطمئنانها . وما عليها ان تطمئن ، وفي أعماقها ما يهتف به ويشير اليه .

كان حلماً في الخاطر لا تتحقق منه وأشرعت له قلبها وملأت به عزلتها ، فكيف وقد شخص لها في حياة هي أملأ ما تكون حياة .

لقد وقفت عنده بكل آمالها وأحلامها ، وانقطعت اليه بكل هوى قلبها المتوهج كأول عهده بالحياة ، وكان انطوى على ظمأ كظيم . . .

باتت السيدة خديجة وأحلامها تدانق شخصاً لم يعد شيئاً في الضباب لا تكتنه منه ، فهو غامض غموضها ، متزايل الملامح تزايلها ، متراخي القسمات على تحجب تراخيها . . بل ملء برديه حياة ، وحياته ملء عين الأحياء . فرت في هوى القلب من حال الى حال ، وأدركتها نقلة من حب خيالي خالص ، بعضه فكر وبعضه أسان ، الى حب وجد سبيل تجسده في أبناء الناس .

وبينها في شدة التعلق ، كما بين الواقع وما فوقه .. فالفراشة تحلم

بالمصباح وتغنيه أغانيها وتشتمل منه على وجد ، ولكنها - وقد دفعت اليه من قريب - لا تحول عنه ولو في الاحتراق ، الذي تحسه عذباً ليس فيه معناه ، بل معنى احتراق في اللذة . . والاحتراق في اللذة ، لذة تضاعفت أو لذة فجرت كل قلبها .

وخديجة في يومها ، كانت هذه الفراشة التي وجدت مصباحها .. فلا بدع أن استوت من تعلقه على عنفوان ما شئت حسبته ، في الخاطر فهو صور لا تبرح ، وفي القلب فهو نبض الظمأ على لسان الآل ، وفي الأمنية فهو هو الأمنية . . .

وتلقت تلقي البشرى عمة محمد تغشى دارتها ، ولا ريب لأمر .. وداعبها أمل لشد ما باتت ترتقبه .

فأوسعت لها في مجلسها ، وأوسعت لها في قلبها ، وأصغت اليها بانتباه أو شك أن يثب الى الخاطر في مستقره البعيد .

فعرضت عليها - وما أحبه عرضاً لو تعرف - أن تراح محمداً وان تعتمده في تجارتها وكانت واسعة ، فما أسرع ما أجابت خديجة بخاطرها بشر كاد يظهر ، وما أسرع ما انبسطت في غبطة باذلة له حظاً أوفى ونصيباً أوفر (١) .

---

(١) بالاستناد على المصادر الوثيقة تقع على مجلس طعام ضم ابا طالب واخته =

راق لها أن يكون ذلك بداعيتين : من ود حقي ، ومن ابتلاء تتكشف خلاله من طبيعته ما هو أكثر وأكثر . . وأنسق لها ما أرادت ، فقد اتصلت أسبابه بأسبابها من قريب ، وباتت تتلقاه (١) وليس في خبر تستخبره ، أو على أكف حكاية تقع اليها .

رأت منه فوق ما كانت تظن ، وفوق ما يتحدث به الناس . . فهو بشرية جديدة فيما تعرف وكل ما فيها يخلب ، طوية وبادية ، جوهراً وحلى : في القلب وما للقلب من مواقع أهواء ، في أخذ الناس وما لهذا الأخذ من شمائل .

وورد غلامها « ميسرة » - وكان كبير عمالها المؤتمن وكان صحبه - بعد سفرة بلغت بهم مشارف الشام ، واخرى واخرى بلغت

= عتيقة ومحمداً ، وما ان قام محمد الى بعض شأنه حتى أخذا بحديث عمله وترتيب أمر دنياه ، وافضت العمة برأي أن يعمل في مال خديجة كما كان الشأن يومذاك بالمرابحة أو بالاجر واستصوب العم الرأي وأشار به على ابن اخيه ، فاجاب (اذا شاءت خديجة أرسلت تطلبني) وأدركت العمة لما تعرف من عزته أنه لن يسعى الى الأمر بنفسه فجمعت عزمها وتصدت في السعي بيت خديجة .

(١) تخلل المصادر بذكر اللقاء الاول الذي خرج منه محمد مغتبطاً ، فقد بذلت له كثيراً من بشرها وترحابها وقفل الى عمه فرحاً بأنه يسعى في التخفيف من عسره ، وفاجأه بقوله (ابشر برزق عاجل ساقه الله اليك) .

بهم مصاحب الجن اوقل أذيالها (١) .. يقص عليها أحاديث مفتونة .. من يسمعه يقول : مفتون لم يمسك نفسه في الفتنة ، بينما هو يحس بأنه مكفوف لم يكن له حظ البيان .

و « ميسرة » لا ينقطع ، فهو مشدود الى أحاسيس مستحوذة : لو أنك معنا فيما كنا نضرب هنا وهناك من البعيد البعيد ، لرأيت الناس كل الناس وليس لهم من إنسانيتهم إلا حظ الهاجرة او حظ من هو أبداً في الضح من لافحها الحرور . . ووحده كان له حظ المظلل بالسحابة فطبيعته أفياء تتنفس فيها مثل غمامة بالندى (٢) .

---

(١) الاكثرون على ان النبي سافر لها مرتين : واحدة الى الشام ، واخرى الى سوق حباشة بارض اليمن بينه وبين مكة ست ليال . . وعند البعض سافر لها أيضاً الى جرش من اليمن فتكون سفراته لها ثلاثاً ، وعند بعض آخر غير ذلك واذا جمعت الروايات المختلفة لزم ان يكون سافر لها خمس سفرات ، أربع منها الى اليمن وواحدة الى الشام وليس ما يشهد لهذا .

(٢) في المصادر ولا أستثني مصدراً ، ذكر لخوارق شهدها ميسرة غلام خديجة وشهدها الركب ونقلها كلها اليها . . وكان من أهمها « السحابة التي تظله في الهاجرة وشدة الحر » واعتبرها الرواة من ارهاصات النبوة ، ولا بدع في انها حق وليس من كبير أمر في المنطق ان تكون وقعت وان تعدها كذلك . . ولكني أحب ان افهمها فهماً مجازيا وهو أكبر في مقياس القيمة ، فسّاق الخوارق ليسو الا بسطاء تستوهم عيونهم باكثر من عقولهم وقلوبهم ، فهم يعيشون عيش الحاسة وليس عيش المعنى ، وانهم في مساق الضرورة وقلما =

وبيننا وبينه ، إن تحسب الصحراء فانه الواحة .. ويوسع ويوسع ليفيض ويفيض . . وتنبعث هي آونة وآونة ، في لذة بين دهش وتأكيد :

أكل ذلك هو ؟! . . ثم لا تنتظر رده ، إنها تصغ في اعماقها الجواب كأنه نداء البعيد . . وهو يتساقط اليها من نحو وعلى نحو ، كأنما لها به عهد .

أتكون عاشقه ؟ . لا تدري ، فكل ما تؤكد هو أنها تعرف ملامح هذا النداء ، وان صداه المضمخ بالشذى ، في جوها غير غريب .

= استشعروا ما فوقها . نعم انا أفهم الرؤية ذلك الفهم لاسيما والجملة العربية تحفظ (فلان اظلته السحابة بات في خفض وسعة) وهي في المادة مثلها في المعنى دون فرق الا فرق الاعتبار .

امرأة تحرّر الطيب

نداء يوشوش فى أذنيها ، ولكنه حلو الجرس عذب الرنين .. تصغي اليه فتلفها نشوة ، وتنصرف عنه فيعروها ضيق .

نداء أفاقت عليه ولاتدري مصدره ، إلا أنه من اعماق بعيدة .. غاية فى البعد تحسبها ، وإن لم تكن فى غير اطار الذات .

وشأن الأبعاد من الذات شأن الأبعاد من اللانهاية ، ليست تثبت هناك إلا فى قدر حسوة خاطر واهم . ففي كيان الذات وحدة ازليـة تحيل اليها الاشياء ، فلا حاضر ولا مستقبل ، ولا قرب ولا بعد .. بل لحظة ابدية تطرح الحدود وهي مشتقة من كبد الزوال ، وفى كونها تذوب مصطلحات عقلنا النسبي وهي تبلورات ظلال خادعة .

نداء على انه يأتيها من البعيد ويهب عليها من المنتظر ، هي الآن تعيشه ، وتنكر على الماضي انها عاشت غيره وتنكر ذلك على المستقبل بانكارها الصارخ نفسه .

انها في ظل لحظة ليست تحس معها بغير كليتها ، فهي امس وغد وهي قبل وبعد ، إن كان لأي منها في مثل ذلك الجو حساب اوخيال حساب .

لقد اصحيت فجأة على ابي هالة ، على عتيق ابن عائذ ، على ما هي فيه من يومها ، وليس كله الا نبضة حنين اختلجت في خاطر حب عميق ، لا تختلف اختلافها الاحين تميل فيملق بها عنصر الزمن الذي يمهرها بعلاماته البلهاء .

نبضة تجتمع مستدقة لتقف عند شخص ، أي عند علامة عند اسم زمني ، وتفتشر متسعة لتعانق روح الكون في شمول وعمق . . أو قل في سرمدية يغص باستيعابها حلق الكلمة ، وينقطع في امتدادها نفس التعبير .

فما تحس هي به اليوم ، من نبضة حنين يتوهج ، لم يكن غريباً عنها ، وكان لها به عهد وأي عهد ، عذوبة و نضارة . . وما أضحت على جديد فيما تشعر ، بل لتقطع بأنها لم تعن اللحظة الاولى بعد .

فغيرهـا فقط ، يرى بوعيه الزمني ، أنهـا إزاء علامـة زمنية جديدة ، إزاء شخص لم يكن لهـا من قبل . . أما هي نفسها فقد كانت عندما رأيت من نبضة حنين لما تزل ، وان مرت بها على ألوان

أنت تبصرها وتحصيها . . كالشعاع في مقلة الشمس ساعة تعطيه ، من يقول إنها تراه غير بياض مضيء ، وإنه فيها غير وحدة نور ؟ ، وإن أنت ذهبت تحلله في عملية « الطيف الشمسي » الى ألوان وترده الى عدد اهتزازات .

وكان فرق ما بيننا وبين السيدة خديجة في هذا : كالفرق بين من ينظر من داخل الى ما وراء ، ومن ينظر من خارج الى ما وراء .

نداء هتف به كيانها وهو يتردد بين كل ذرة وذرة ، لينعقد تراجيع تراجيع ، تظل آسر وتظل اغرى داعيـة . . كنغمة تريد ان تحقق لحنها او ان تتحقق في لحن ، فدارت على طبقات ومنازل ، وفترة السكون لا تكون انقطاعاً بل استمرار لأداء ، ساعيـة تنشد اوجها بحرارة استكمال الوجود ، بحرارة البقاء ضـد الفناء ، بحرارة الحياة ضد الموت . . فموت النغمة على الحقيقة انما هو في انقطاعها ، اي في ان لا تتحقق هذا التحقق .

والسيدة خديجة تستجيب بارادة ودون ارادة ، الى وشوشات ذاك النداء ، بكليتها ، بكل خالجة تدور وتتردد في حناياها . . صنو تلك النغمة التي انسجمت انسجامها في لحن ما كان لها ان تقع دونه ، والا خسرت سرها سر الوجود .

مع بكور صباح ماتع ، او هكذا أحست به ، في سر نسيمه ، في تألق شروقه ، في تناغي اطياره ، في اضوائه وظلاله . . استيقظت على لحنها ، وكأنه تردد لسان في مجتليات الكون ، ما اتسع الكون .

على انه ما الكون ؟ ما لبانته ؟ إن لم يكن تراجيع اصداء نحن نبثها ونطلقها . . .

وما يدرينا ان يكون من زعم ، صادقاً حين حدث : بأن حبات السنابل في صدر الطبيعة ، ليست الا متبلورات حاجة خالطنا حسها ، واستوت خلقاً يوم استوت ضرورة . . وصادقاً حين فسر : بأننا فضل من محيط ، اذا خفقت فينا « في الكل » رغبة ، خفقت وعي هي في سائره ، لتنعقد خلقاً وفي معناه استجابة .

مثلما نحن ، ويتصل فينا من خفق المحيط ، من كل خفق المحيط ، ما ينعقد عندنا وعياً ، او تكوراً جديداً ، وفي معناه استجابة أيضاً .

وبذلك يتلاقى الكل الواحد : وجه في وجه ، ونداء في نداء . . وينعطف الروح المطلق نحواً على نحو .

وما يقال لك من تطور وأساليب تطور ، او ما يقال لك من صيرورة تندفع وتتجدد ، فليس الا العبارة القاصرة البلهاء التي لا تعي نفسها ، ثم لا تفسر كونها في هذه السنة لم اتفق ؟ وموقعها من ذلك المطاف لم كان ؟ .

وأنت اذا اكتنهت التطور حقاً ، تجد سره في هذا التصادي (١) وعبارته في ذلك التساوق ، المنعطف رجعاً على رجع ، وغاية على غاية ، وفعلاً على فعل . . .

نعم ، لقد استيقظت غداة هذا البكور ، على لحنها وكأنما أفعم به قلب الكون الكبير ، ففاض على سيمائه بشراً وفاض نضارة . . حتى لحسبته جديداً في كل شيء ، جديداً في شمسه ، في لألاء شمسه ، جديداً في أرضه في سمائه . . حتى اتكاءة جباله على صدر الأفق ، تراها جديدة ونحسها لمعنى لم يكن لها من قبل . . .

ومرت مولاتها (٢) « نفيسة بنت منية » تسعى في بعض

---

(١) من أغنى كلمات العربية هذه الكلمة ، فهي تفيد معنى ثنائياً او بالاحرى يمكن ان تستعمل لذلك من تراجع الاصداء والتدبير بوعي ، واستخدمناها هنا بمعنى تراجع الصدى الواعي اي الفاعل .

(٢) في الروايات اختلاف أكانت نفيسة هذه مولاتها أم صديقتها ، ويكاد يقع الاتفاق بين كتاب التأريخ والسير وتراجم الصحابة والتراجم العامة على أنها صديقتها فهي اخت يعلى بن منية ووقع عندالطبري ما يفيد انها مولاتها ج٢ ص١٩٧ وملنا الى اعتماد المرجوح لانه أدخل في منهج السبك ، مثلما اعتمدنا الرواية المرجوحة ايضاً في الفصل السابق فيمن كان الوسيط بين محمد وبينها في العلاقة التجارية وأثبتنا هناك انها كانت عمته وهو قول في أقوال بعضها انه عمه ابو طالب وبعضها انه نقل اليها الحوار بينه وبين عمه فبعثت تطلبه الى أقوال عديدة .

شأنها ، ومر بخديجة فى مرورها خاطر اتصل بخواطر ، تتالت سريعة سريعة . . ودون تلبث حزمت امرها حزم الجد ، فاذا هي تستوقف مولاتها ـ وكانت فى محل ثقتها ـ وتدعوها الى مجلسها من الأريكة المطعمة بالعاج ، واذا هي تطارحها حديثاً ذا تفاريق اتصل من شيء في الدار الى شيء في الافق .

ومولاتها ـ على انها تصغي حيناً وتأخذ بأطراف الحديث حيناً ـ بدت عليها مسحة التماء (١) في اعطاء اذنها لها ، فهي رقيقة لتكثف وهى كثيفة لترق ، آونة وآنة ، فى تدارك وتتابع مع مسرى الحديث وكان طويلا .

فقد لفتها غلالة من شرود التقدير . . ما عهدتها من قبل تخوض مثل هذا الخوض ، كما لم تعهد لها هذه النظرة المنبسطة عند الافق ، العالقة وكأنها بشيء فيه .

إنها مغتبطة كما لم تعرف منها ، مغتبطة كأمل متفائل . . ثم هي لاتنطق بلسان من ورائه قصد معين بل من ورائه قلب تزهزه كروض ، قلب كالذي تعرف منه عذارى تتزافن (٢) بهن انفاس الشباب .

---

(١) الالتماء افتعال من لمى ويفيد تغير اللون وأردنا منه هنا تغير نوع الاصفاء .

(٢) من تلاني زفن حركات كالرقص .

وللعذارى في طلة البراعم وعمر الأملود ، قلب العقد من بهجات فيها من كل لون ، يدور على انحائه مثل كرة الثلج .. كلما مضت اكثر فأكثر كبرت اكثر فأكثر ، حتى اذا استقرت استقرارها ، تذوب على نفسها بكل ما العقد فيها وتراكب عليها : في دموع حيناً اوفي غيرها حيناً ، وتذوب ايضاً بمأساة في نهم سواها الى الابتراد .

هكذا كانت نفيسة في نجوى بينها وبين نفسها : أترى خديجة - وهي التي ذاب قلبها المنعقد انعقاد الروض في دموع - عادت فعلمته بأعجوبة لينعقد انعقاده مرة اخرى .. يصفق للفراش، ويسفح العبير بخوراً في صلاة البلابل .

وما ادرانا ، اليس في قلب الشتاء العابس قلب الربيع الباسم .. ولكن اية أعجوبة هي التي صنعتها .

لعلها رأت أبا هالة ، وأعني لعلها أحست من جديد بتنفس شبابها الذي كمته يد خفية بقسوة .. نعم لعلها رأته في غفوة كانت انتباهة ذكرى ، أما أكدت في حديثها منذ هنيهة انها رأت هناك عند الأفق البعيد أبا هالة ، في ومضة لتنحسر عن ومضة رأت فيها عتيق بن عائذ ، لتنحسر بدورها عما هو ابهى ، بيد انها لم تتحققه كما لو قام دونها جدار من وهج اضواء .

تؤكد هي انها رأت ذلك رأي الحس ، ولعلها الآن تحيلنا ـ نحن الواعين وعي الزمن ـ حين لا نرى ما رأت ، الى كوننا في غفوة بليدة وكابوس نوم ثقيل .

أيكون هكذا قلب الانسان اكبر جبروتاً من الزمن ، وها هي بضربة تمحوه .. ايكون أثبت من الكون هذا الجامد واعمق حقيقة ، وها هي لا ترى فيه الا انه وجه مرآة لحلم يرف في خاطرها .. ايكون اخلد من المعرفة ، من وعي معرفتنا ، وها هي تنهار بأضخم اقدارها وقيمها كضمة من اشباح الليل في قبضة الفجر .

وأفاقت نفيسة من نجواها على صوت خديجة يهتف بها :

أرأيت محمداً ؟ أعرفته .

نعم رأيته هنا في الدار ، ورأيته خارجها ، وعرفت منه قدر ما يعرف الناس منه ويدور في احاديثهم . . مالت خديجة تعيد قولها في صوت خفيض لا يخلو من اشفاق : وعرفت منه قدر ما يعرف الناس منه ويدور في احاديثهم ، وماذا يعرف الناس ، هل يعرفون الا معرفة الحاسة التي لا تعلق الا بالظلال .

بماذا تلم العين ، نعم بأي شيء ، اللهم سوى خطوط واضحة تتواقع كيفما اتفق على المفارق .. وماذا تلقط الأذن ، غير بواد يجوب بها صوت مصنوع .

انها لم تعرف الا الثوب ، وما احراه ان يحول خلقاً لا شيء منه ولا شيء فيه . . اما حقيقته - وليست بالحاسة الجامدة تدرك - فليت للناس غير حواسهم ، اوليت قلوبهم في طريق حواسهم ، اذن لوعوا منها ما اعي .

وجهرت قليلاً : ليتك كنت تعرفين .. وشخصت ببصرها قليلا في غير شيء ، او في شيء يراود خاطرها ، ثم قالت :

كيف بك اذا ندبتك لأمر .

انا ! . . تعنين ، حسبي - كمهدك بي - ان اظل في محل الثقة .

* * *

وكان ان (ارسلتها دسيساً الى محمد تستنبئه نبأة ميله) ، وكان ان غشيت داره تعاطيه حديثاً ظل في الترحيب وما هو الى الترحيب مما ليس يتحرك به قصد معين ، لتنتقل به نقلة صناعاً . . فهي تذكر شبابه وتذكر حقوق هذا الشباب عليه وما يطالبه به ، ويغض محمد على الطرف (١) وتغض هي على الأمل بالفوز ، لتفاجئه بقولها :

ما يمنعك ان تتزوج ؟ . . وحين اشار الى قلة المال استدركت :

---

(١) تركيب خارج مخرج الكناية كأنها ليفيد جمع النفس كلها في طرف غضيض ، وهو شيء غير قولهم غض الطرف أو غض منه أي استحي .

فان انت كفيته ، ودعيت الى المال والجمال والكمال والكفاءة . .

وحين انبعث يسأل :

ومن تلك ؟ . . اجابت وقلبها على جناحي تخوف :

انها خديجة .

أبنت خويلد تعنين ؟ .. قالها بتعجب مشوب باعجاب ، وسرت به اطراقة قطعها بقوله :

وكيف لي بذلك ؟ .. فداخلها اطمئنان لا حد له ، انبرت تجيب معه في تأكيد وثقة :

ما عليك .. بلى انا افعل .. ويصمت محمد صمتاً كأنه ينطق بالرضا ، وتصمت هي صمتاً كأنه ينطق بالغبطة .

وتنقلب الى خديجة راجعة ، تحمل لها السعادة بيد والتمني المخلص بيد .. وتجزل السيدة كرامتها (لقد كنت والله يا ابنة منية ، ميمونة النقيبة) .

وما تلبثت خديجة ، فهي ترسلها كرة اخرى تعين موعد العقد وتلتمسه لزيارتها ، فيجيب الى هذا وهذا وينهمكان في معدات العرس .. او الفرحة الكبرى في حسها المختاج بحلم ، طالما غنته اغاني الفراش في سمع الزهر ، وهو يمد فوقها قباب العبير .

وكانت في البهجة تتلقاه كلما هبط عليها زائراً ، وكانت في الوداع كل مرة تعزم عليه ان لايستأني بأخرى ، فاللحظة دونه دهر طويل .

وينطلق مرة غادياً اليها ، ويخامر عمه أبا طالب خاطر ليس في الريبة بل في التوقي ، فيبعث من ورائه « نبعة » مولاته لترجع اليه بما أفعم قلبه سروراً .

فقد شهدت « الآذريون » (١) في محراب الشمس ، طرف في طرف ليس يسقط ، ووجه في وجه ليس ينأى ، انه يمزج بخور قلبه بحبة شعاع .

وما على البخور أن يلاقي النور ؟ ، وهما ما التقيا قلباً وقلباً ، الا ارتسم من هبوة أنفاسهما معبد . . (لقد رأت خديجة تميل فتأخذ يد محمد تسند بها قلبها ، لتبثه في نشوة ليس فيها من معنى الارض :

بأبي أنت وامي ، والله ما أفعل هـذا لشيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت المنتظر الذي سيبعث . . فان تكنه فاعرف حقي ومنزلتي ، وأدع الآله الذي سيبعثك لي .

ويرد محمد : والله لئن كنته ، فلقد اصطنعت عندي مالا اضيعه

---

(١) نبات أصفر وهو في رأي بعض اللغويين ما يسمى اليوم بزهرة عباد الشمس .

أبداً ، وان يكنه غيري فان الآله الذي تصنعين هذا لاجله لايضيعك أبداً) (١) .

* * *

ولم يفصل كبير وقت ، حين أفاق الناس على حفل زاهر زاه . . أشهدت موكب الربيع في قبلة الفجر ؟ ، فانه صنوه .

(أقبل القوم من بني هاشم يوم الأملاك « العقد » ، وفيهم كريم فتيانهم ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبدالله ، يحف به عماه أبو طالب وحمزة . فنزلوا من بني عمهم أكرم منزل وأسناه ، حيث قابلهم واحتفى بهم عمرو بن أسد (٢) عم خديجة . وما أن اكتمل عقد اجتماعهم حتى قام أبو طالب إمام قريش يومذاك وسيدها ، فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ،

---

(١) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٠ وغيرها مثل السمط الثمين في مناقب امهات المؤمنين للمحب الطبري ، ومن المصادر المتأخرة سيرة زيني دحلان وكتاب شهيرات النساء في العالم الاسلامي للاميرة قدرية حسين ج ١ ص ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) اختلف في المزوج لها والصحيح انه عمها المذكور لأن أباها مات قبل الفجار ، وفي السيرة الحلبية رواية منكرة وأوردتها هي على انها كذلك وتدور على ان خديجة أسكرت أباها حتى ضمنت موافقته راجع السيرة المذكورة ج ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

وضئضئ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس . . ثم ان ابن أخي هذا ، محمد بن عبدالله ، لا يوزن به رجل الا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً . وان كان في المال قل ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة .

وهو - والله بعد - له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد رغب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة ، وقد بذل من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة اوقية ونشاً » (١) .

فقام على الأثر ابن عمها « ورقة » فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وانتم اهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس نخركم وشرفكم . . فاشهدوا علي معاشر قريش اني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله » . . وكان ورقة في موقفه هذا ينطق بلسان عمرو بن أسد عم خديجة ، فالتفت ابو طالب وقال :

يا ورقة ادع عمها يشاركك العقد . . فنهض عمها وقال :

---

(١) الفتى عشرون درهماً وهو نصف الاوقية ، ويروى ان أبا طالب أصدقها عشرين بكرة .

اشهدوا علي يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد (١) . . .

وكان محمد إزاءها أثناء العقد ، وما انتهوا حتى مالت تهمس في اذنه ان ينحر ، فطعم القوم ما شاءوا (٢)] .

* * *

وهكذا استوى بعد انتظار شحيح ، لتلك النغمة الشاردة ، ان تنسجم انسجامها في لحنها العبقري ، وقد انهمر من أنامل القدر انهمار جدائل الشمس توشح بها وجه الشروق .

هـذا اللحن الذي سكب الغيب فيه عمقه ، وعبارة أسراره ، وكانت أذن الحياة ظمأى يثقلها الفراغ وتمعن في نواحيها الوحشة .

---

(١) يروى انه قال أيضاً وقد جهزتها بار بعمائة مثقال من الذهب ، ويروى ان ورقة الذي قالها وانهى بها خطبته .

(٢) كان تزويج محمد بخديجة بعد مجيئه من الشام بشهرين وقيل بخمسة عشر يوماً والاول أصح ، وكان عمره اذ ذاك خمساً وعشرين سنة على ما هو الصحيح الذي عليه الجمهور ، وفي قول كان عمره خمسا وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام . . أما عمر خديجة فاختلف فيه والصحيح انها كانت في الاربعين ، وقيل بنت خمس وأربعين ، وقيل خمس وثلاثين ، وقيل ثلاثين ، وقيل ثمان وعشرين ، وقيل خمس وعشرين راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٠ .

والسيدة خديجة باتت تتقلب تقلب الحس المفعم ، في أراجيح هذا اللحن .. فهي تعيش أحلامها عيش القطوف الدانية ، لا عيش همسها في خاطرة النواة .

لبثت من دهرها أمداً ، وهي مثل شجرة الأوراق تمد أحلام قلبها انياءً في مرآة الشمس ، فتجتليها اجتلاء النشوة ساعة تلونها آية النهار بمطارف الشعاع .

لبثت كذلك شجرة أفياء ، أي شجرة أحلام ملونة ، تغنى غنى قلب الشعر بالأماني .. لتصحو وهي مثل شجرة الثمر ، متبلور بسمات أمانيها حبات قلوب .

لقد أصابت من الشعاع أكثر من اللون ، وأصابت من الفيء أكثر من الظل الندي ، وهي لا تفتأ تمزج بينهما مزج الحياة .. فاذا الشعاع طعم وفوح ، واذا الفيء الندي طعم وفوح .. خصائص موصولة .

واذا الحلم الطائر ، برينا كيف ينعقد انعقاده في واقع هو بحلم أيضاً .. معارج موصولة .

وخديجة في يومها .. انما عرجت الى محمد عروج أحلامها ، فابترد فيها ظمأ . أما الى محمد عروج أحلامه ، فانه يغاديها بظمأ جديد ...

عرجت الى محمد عروج أحلامها ، فاذا دنياها محمولة على هوادج الشفق ، في موضع ، لحن المساء فيه هو لحن النهار . . والشفق ـ لو تعلم ـ لون حقيقة مطلقة ، فهو ليس الليل ولـكن فيه كل روحه ، وهو ليس النهار ولـكن فيه كل روحه ، اعتنقا اعتناق سرمدية ، دون منحدر ضفتها بعيداً ينبت الزمن .

باتت من حياة قربه في متعات ، تتراخى الى حسها شآبيب شآبيب ، فهي مغتبطة وهي هانئة ، وهي اشياء كثيرة من هذا . . إنها سعيدة .

والسعادة يد ساحر ، تمس اليبس فيحول روضاً ، وتفتح اغلاق جفون الصخر عن أحداق مكحلة بالنور . . وما وعى الصخر على نفسه ، الا انه هـذه الجفون ، مغلقة لا حد لاغلاقها ضفيفة لا حد لصفاقتها .

وقيل ـ وأنا أصدق ـ إن العربي كان ملهماً يوم دعاها حديقة ، وأعني يوم تصور فيها باقة أحداق ، تنعكس بارتسامات مما أجن قلب الأرض .

* * *

بقربه كانت تمر بالأعوام أو تمر بها الأعوام ، غير مستثبتة منها

إلا أنها ، أفاويق بين رشفة ورشفة ، لكأس لم تضعه من يدها بعد ، بل ما كان لها أن تضعه فهي مقبلة عليه إقبال الهيم ، بالجارحة والخالجة باللب والفؤاد ، وما يتصل باللب وما يتصل بالفؤاد .

تقبل عليه بعاطفتين أحداهما تكمل على الاخرى ، فهو للحب في عينها امرأة ، وهو للحب في عينها اماً ، ولا تسكن عندها واحدة إلا لتتحرك باخرى . . وانجبت (١) له ، فهو لحبها أيضاً في معنى جديد .

نعم هي تبذل له الحب ألواناً وتفرش به أرضه وسماءه ، بيد انها ما اعترضته به دون أحلامه ، وما أخذت عليه دربه ، لكأنها تعرف اين ينتهي به ذلك الدرب . . بل صنعت من حبها مخارف ، تتنضر بين يديه بمتعة الطريق ، وهي توغل في الصعود وتمعن في اتجاه البعيد ، تحبه وليس الحب « النرجسي » (٢) ـ شأن ما تعهد المرأة منه ـ

---

(١) ولدت لمحمد ابناءه كلهم الا ابراهيم الذي كان من مارية القبطية وهم على ترتيب السن القاسم والطيب والطاهر وأكبر بناته رقية ثم زينب ثم ام كلثوم فاطمة وكلهن أدركن الاسلام وهاجرن . راجع ابن هشام ج ١ ص ١٢١ .

(٢) زهرة النرجس ترمز في الاسطورة الاغريقية الى نرسيس الذي كان يعشق نفسه عشقاً لا يرى معه في أي شيء الا نفسه .

وفيه الحب إشباع لكبرياء الحس بالوجود ، فهو انانية حلى بذاتها ، وهونهم آسر يمشي بمثله . . وانما احبته حب القطرة للنواة ، تسعى اليها بلذة التضحية تفجيراً لاسرار طبيعة مخزونة ، في تفجيرها قصد الى تكبير الوجود .

وكان لها بهذا الحب الاصفى ، به وحده ، ان تعرج الى محمد شيئاً بعد شيء عروج احلامه ، فهي ترى من حقيقته ما لم تكن تعهد ، وتبصر ما تحسبه جديداً غريباً ، وتندفع اندفاعها الى ابن عمها « ورقة » تحدثه وما تكفكف الحديث ، وتطنب وتظل على الاطناب في محاولة الافصاح ولكنها لا تطيقه ، ويرى ابن عمها ذلك منها فيبتسم لها ابتسامته كمن يعذرها على انها لم تفصح ، او بالاحرى على انها ناءت به وانقطعت دونه وان حاولت . وإن جهدت فرط الجهد ، وتتم كمن هو في نجوى مع نفسه :

[قد كنت عرفت انه كائن لهذه الامة نبي ينتظر ، هذا زمانه] ، وعساه ان يكونه ، وما بي اتمنى انه هو ، هو نفسه ، وهذه علائمه (١)

وخديجة لم تكن تطلب مزيد معرفته فقد احسته بحس القلب ، وما انفك يتزايدها هذا الحس مع الأيام ويكبر على القرب . . ولكن

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٠ .

سرها ان تجد من يشاركها هذا الاطمئنان ، ويذهب فيه مذهبها .

ونحن في الحب والبغض ، في العاطفة والفكر ، نغتبط بالموافق لا ليزيدنا ثقة بعواطفنا وأفكارنا ، بل لأننا نأنس بمن يشاركنا ويفكر معنا ، او ـ وهو أصح ـ بمن يشعرنا بتأكيد الشخصية في مظهر الفكر او في مظهر العاطفة ، اي يشعرنا بالتفوق . . فأنت قد تطيق من محدثك إنكاره اي شيء عليك ، خلا معطيات الفكر والعاطفة لانهما عنصر الشخصية او ان شئت فقل ، لانهما ابلغ عناصرها واكبر مقوماتها .

وخديجة استعذبت من ابن عمها ان يشعر معها هذا الشعور كله ، فكانت لا تفتأ تسعى اليه كلما سقطت على جديد او خيل اليها ذلك ، فكثيراً ما كانت تنقل اليه وتبثه ما سبق لها انها نقلته اليه وبثته في اذنه .

وورقة يعجبه ذلك منها ، ويعجبه اكثر واكثر هذا القلب عندها الشاخص دوماً الى فوق ، تتكشف سراً طالما اعياه امره وتنشد غاية طالما انقطع بمعارفه دونها ، وتتمتع بيقين اعوزه بعضه .

لقد طفق يشعر في حماستها بجديد لم يكن يخالجه ، وافاد من حرارة ايمانها حرارة . . فهو ما انقطعت يستزيرها ، وما ابطأت

يستعجلها ، وما كفكفت يستزيدها . انه بات يحتاجها ، يحتاج حديث قلبها الذي اناله ما عجزت عنه معارفه .

وفي خلوته كثيراً ما مر به خاطر كان يبسم معه : هي تسترشدني في ظنها ، وانا الذي رشدت بها . . اترى ، ما يعوز العطاش ليس اكثر من قلب يحب . . .

واستمرت به واستمر بها ، فهو يرتقب ارتقابها ويعيش في مثل لهفة املها ، وكانت أرته إياه قريباً حتى لكأنه تحت سدائل ليلة مع الفجر . . ولكنه تراخى ، وما كان له ذلك اما اكدت قربه ؟ . . وترادف في قلبه إلحاح وتباغم في نفسه نداء ، وما استمسك فهو يهتف :

لججت وكنت في الذكرى لجوجاً ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... لقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك ، ان أرى منه خروجا
بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية ان تموجا
فيلقى من يجانبه خساراً ... ويلقى من يجاريه فلوجا
فياليتي اذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت اكثرهم ولوجا

ولوجا في الذي كرهت قريش ولو عجت بمكتها عجيجا
فان يبقوا وأبق ، تكن امور يضج العنتون لها ضجيجا
وان أهلك ، فكل فتى سيلقى من الأقدار متلمة خروجا (١)

بهذه المرارة كلها التي نحس طعمها - وهو العلقم - في نشيده وكان كما ترى تفجر ضلوع عن زفرة شد ما احتبستها ، هو يناجيها ، يناجي الأثر الذي تركته حياً في نفسه .

[لقد طال انتظاري ياخديجا] ، هتاف بذل فيه قلبه بذل لسان النار في موقد القرابين ، حسبه منه انه الشعلة في طريق الآتي من هناك .. من لدن الله .

* * *

وخديجة - على انها تحميه بالجفون ، وتفرش طريقه بنسج من حبك أهدابها ، وتجتوي ومضه اللحظ التي تخلو منه - لا تقف دون رغابه ، فهي تشيعه دامعة باسمة ، في أمنية وامنية وبين عاطفة وعاطفة .. وكان اخذ درب « حراء » حيث المزالق الفاغرة يتسلقها تسلق الجاهد ، ويمر بينها مرور الطيف المسرع ، ويندفع نحو الغار اندفاع الرضيع الى ثدي .. وما هو في التشبيه ، لقد كان له ذلك الغار ثدياً حقاً ،

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢١ .

أما ولد ولادة ثانية ، وها هو هنا يستنزل اللبان .

انكش عن الوجود الفضاء ، ليحيي وجوده المفعم ، الذي هو مهبط الاسرار ومجلى روح الله .

والعزلة كانت وحدها دائماً ، للاصفياء ، المعراج الى الحقيقة الكبرى .. وحراء ذلك المغار المبهم الذي يضيق حتى لا يتسع لشخص المتأمل المتأله، كان ينفرج به وينفرج حتى ليأتي الكون كله في جانب صغير منه .

انه هنا بالروح يحيي ، وانت بالروح مصنع معجزات ومبدع آيات .. وانه بها يرى ويسمع ، فلم تعد الحاسة تقف عند الحس ، بل تخترق اليها سبيل ضميرها المحجب .

ومن هنا جاءت الرواية (١) ، بأنه كان يسمع ترنيمة صلاة ، كأنما يتردد بها لسان في كل ما يقع عليه الطرف وما لا يقع ، حتى الحصى كان يهمس همسه كما لو ان الكون كله معبد .. بلى ، انه « معبد الرؤية » لذوي البصائر .

ابتدأ هذه العزلة شهراً يقضيه في الاستجلاء ويختمه في البر (٢)،

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج١ ص ١٥٠ وسواها مما هو كثير كثير .

(٢) راجع المصدر المذكور فقد جاء فيه « كان رسول الله يجاور شهر رمضان من كل سنة في حراء ويطعم من جاء من المساكين وهبط عليه» ص ١٥٠ .

وتقضيه خديجة في السعي اليه بحاجته ، لتزيد به وتزيد حتى لأضحت الخلوة له جلوة ، وحتى لبسات بحس في الانقطاع حقيقة الاتصال .

وانه لفي نشوة الاستجلاء التي نحسبها غفوة ، كانت يقظته ، يقظة التجلي التي ندعوها نبوة .

لحظة أبدية مشرقة ، طويتها يوماً في صورة ليست الى الشعر ، وانما هي الى الاشارة ، ولا أجاوز مقداري فأقول الى التعبير :

هناك في الصحراء ـ حيث صمتت ... مصغية ، جوانب الكون الكبير
وخلجة الحياة حيث هدأت ... واعيةً ، في لهفة وفي حبور ـ
تنظمت خاشعةً مكبرة ... مواكب الأجيال ، تزجيها العصور
وقد جثا الوجود يرنو شاخصاً ... لجبل يبدو كما يبدو الوقور
فقد أطل من ذراه ، هبة الأدهار ، كالمشكاة في الأفق المنير
أطل من غار حراء رانياً ... كما رنت شمس على رأد الظهور
مقلباً ناظره ، منفضاً ... عن جفنه ، هباءة الدهر الدهير
وها ، رويداً راح يخطو هابطاً ... وحوله التاريخ ، مزهواً طرير
منحدراً في هالة مشعة ... كهالة البدور في اليوم المطير

ولأترك الآن الحديث للرواية ، فانها أحب وأغنى ، وأخصب وأندى :

[أول ما بديء به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال:

اقرأ .. قال : ما أنا بقارىء .. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال :

اقرأ .. قال : ما أنا بقارىء .. قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال :

اقرأ . . فقلت : ما أنا بقارىء . . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال :

اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم .. فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .. فقال لخديجة ، واخبرها الخبر :

لقد خشيت على نفسي . . فقالت خديجة :

كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،

وتكسب المعدوم (١) ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن اخيك . . فقال : يا ابن أخي ماذا ترى . . فأخبره رسول الله خبر ما رأى ، فقال له ورقة :

هـذا الناموس الذي نزل الله على موسى (٢) ، يا ليتني فيهـا جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . . فقال رسول الله :

أو مخرجيّ هم . . قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً) (٣) .

---

(١) في غير رواية البخاري المدم وهو الأصح .

(٢) في غير رواية البخاري « الذي نزل الله على عيسى » مرة ومرة « الذي نزل الله على موسى وعيسى » راجع تحقيق ذلك في كتاب عمدة القاري شرح صحيح البخـاري للعيني ج ١ ص ٤٠ ـ ٥٠ .

(٣) راجع صحيح البخاري ج ١ ص ٣ .

يوم الأفق الهلاك

قدوس .. قدوس .. هتف ورقة ، جاهماً فى هتافه كل نفسه ، كمن بات يتشهى على طرف أمنية ، ليصحو ، وسر قلب الأمنية بين يديه .

لم يطق إلا أن يهتف هذا الهتاف ، وخديجة فى مجلس منه كعادتها .. تقص هي عليه ما رأى محمد ، ويستمع هو استماع البشرى ويصغي إصغاء الظفر .. إنه اليوم سعيد ، يستخفه عبق ليس من ضمير الدنيا .. ليس مثله مما تخمر ضلوع الأرض ، وتنشق عنه مواهب التراب .

لقد رأى العنقود كيف ذاب به الشوق ليحول رحيقاً ، يعطي القلب نشوة ساعة يفتح الروح على مغالق الخلد .

كانت تنصرف جهدها عن التفاصيل شأن من يهتم بالحادث في الخبر ، وكان يردها جهده اليها شأن من يهتم بالمعرفة تعليلا واستنتاجاً

ومقابلة ومقارنة . . إنه يريدها على أن تفضي اليه بكل ما تعرف ، باسطاً لها أذنيه جميعاً واحدة لوعي عقله وواحدة لاطمئنان قلبه ، أو لعله بسط لها عقله وقلبه ساعة بسط لها سمعه .. فما وقع اليه حرف الا رأى ما وراءه ، وليس رؤية الدلالة بل رؤية التجسد .

وكان لهذا الشيخ مقلة ، كأنما جاء بها الغيب على مقداره ، فما يطرف لها جفن على جفن ، وما ينحسر فيها لحظ عن لحظ . . الا كما يطرف دفق شعاع على دفق شعاع ليس تحتهما ما يتوارى ، والا كما ينحسر فجر - اذا انحسر - عن شروق ليس في اتجاهه ما يحتجب . فهي ترى ما وراء الظواهر كما لو لم يكن هذا الوراء ، أو كما لو لم يكن هذا الوراء الا رمزاً فقط يشير الى مسافة .

وحين تقاصرت ابتدرها : أنائماً يأتيه هذا الذي ذكرت أم وهو في يقظة مثل يقظتنا ؟ . . أجابت :

أتاه الروح على تحوين من يقظة ومنام ، فقد حدثني [بأنه مرة جاءه وهو مغف في نمط من ديباج فيه كتاب ، فصنع به مثلما نبأتك من صنيعه به في يقظته ، ثم أنصرف عنه وهب من نومه وكأن ما طالعه به كتب في قلبه كتاباً . . قال : فخرجت حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا

جبريل ، فرفعت رأسي الى السماء أنظر، فاذا هو في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول مقالته .

فوقفت أنظر اليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما ارجع ورائي حتى انصرف وانصرفت راجعاً .

وقلت له حين غشي الدار : يا أبا القاسم أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك فحدثني بالذي سمعت . . فقال ورقة :

لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ، فقولي له فليثبت . . ولم يفصل الا يسير من وقت حتى قصد ورقة محل الكعبة ، ساعياً الى لقياه ومشافهته ، فقال :

يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره النبي خبر ما رأى فقال : والذي نفسي بيده ، أنك لنبي هذه الامة . . ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه . . ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه (١)] .

وورقة هذا الذي عاش في الريب وتقلب في الحيرة ، قر اليوم عيناً

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٠ - ١٥٣ .

بما خفق به فؤاده زمناً . . ومال وقلبه على شفتيه ، يطبعه قبلة تقوى في جبهة هذا المحراب العتيد .

وشهد الناس في مرأى هذه القبلة . . كيف يمشي الهيكل العتيق (١) الى الهيكل الجديد ، وقصاراه أن يسكب روحه في جلاله رعشة قدس تبقى .

وورقة - على ما وصفناه ، فلعقلته حظ النفوذ الى الغيب وراء أستاره - حدد هذه النبوة تحديداً ، لكأنما كان عند ينبوعها يرى ويبصر ، ساعة هتف هتافه وكانت نبرة الحق الأعلى في نبرته « هذا الناموس الأكبر الذي نزل الله على موسى وعيسى » . . ليقول : في طبيعة هذه النبوة خصائص كل نبوة ، فلن تجيء علاجاً لداء شر من داء ، بل أتت معنى الدواء كله لتمسح معنى الداء كله : في إنسانية الانسان ، وإنسانية المجتمع . . وما فوق هذا وهذا ، في أن يكون لك حظ من إنسانية هي تفجر من قلب الله .

ولم ينشب ورقة أن أغمض عينيه في غبطة النعمة (٢) ، وبرد

---

(١) كان في الجاهلية لفضله وفضيلته يلقب بالقس راجع عمدة القاري ج ١ ص ٦٣ .

(٢) قال ابن منده اختلف في اسلام ورقة واليه ذهب جمع من المحدثين .

الاطمئنان ، وحلاوة اليقين . . ليبقى على لسان النبوة ذكرى طيبة : « لا تنالوا ورقة ، فانما كان له جنة او جنتان [1] » . . .

* * *

وتمرو النبي بشرية ، يروده في حدودها قلق من شأن نفسه ، . فهو يتخوف وهو يقلق ، وهو يفكر ويطيل التفكير ، ويتبصر ويطيل التبصر . . ويلجأ الى قلب خديجة يتكنفه ، وقلب خديجة ـ لو تعلم ـ كوثر او ينبوع ، فيبثها بث الواجف الذي يأسى « والله لقد خشيت على نفسي » .

وتمد خديجة بصرها تحدق في المجهول البعيد ، في لفتة من عمل الفكر ولفتة من عمل القلب ، لتقول في عزمة المطمئن وقطع الواثق « كلا والله ، لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » ، ولتجعل من التسلسل

---

(١) اخرجه الحاكم في المستدرك وقال هو صحيح على شرط الشيخين ، وروى الترمذي ان خديجة سألته انه كان صدقك ولكنه مات قبل أن تظهر فقال النبي رأيته في المنام وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك وهو غريب ، وذكرا بن اسحاق انه قال رأيت الفق وعليه ثياب حرير لانه أول من آمن بي وصدقني قبلما ابعث . راجع في كل هذا كتاب عمدة القاري الذي سبق التنويه به .

المنطقي لعمل الأخلاق وطبيعة الفضيلة، سبيلها الى الالزام بأن العدل الآلهي لن يميل به، الا ميل الاصطفاء، ولن تمر به يده الا مر الاختيار في دنيا الناس.

البرهنة بالأخلاق منطقياً، تبتدعها السيدة خديجة في تاريخ الذهن البشري، كما لو وضعتها في هذه الصيغة:

أنا إنسان حقاً، فاذن أنا إلهي (١) حقاً.. وما كان الله بناقض غزله، فمن ذا يحسب بأن المفن يتنكر ويكفر يوماً بروائعه، وأعني من ذا يحسب بأن المفن يتنكر ويكفر يوماً بذاته...

وخديجة على الثقة تميل في قدر الموقف وزنته، الى الأخذ أيضاً بتجربة روحية خالصة وممارستها، فتقول:

« أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك، قال نعم.. فجاءه جبريل كما كان يصنع، فقال النبي لخديجة هذا جبريل أتاني.. فما هي الا أن حسرت وألقت خمارها، وما هي الا أن ادخلت محمداً بينها وبين درعها، ثم قالت هل تراه، قال لا، قالت: يا ابن عم اثبت وابشر، فو الله إنه لملك (٢) »..

---

(١) النسبة هنا لأدنى ملابسة كما لا يخفى.

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ على اختلاف يسير في الرواية والسرد.

الى أي شيء هدفت السيدة خديجة بهذا كله ؟ .. إنها تنقلنا بما فعلت من نحو في البرهنة الى نحو ، فهذه التجربة التي اجرتها تقوم على مفهوم روحي نير مثلما رأيت في البرهنة بالأخلاق وهي تقوم على مفهوم عقلي نير .

فذلك التراثي الرفيع في جو الانبياء ، لا يكون الاحيث تخلص الروح منفصلة من كل علائقها الأرضية ومشتقاتها وتتجرد مستعلية تجرد صفائها الأنقى .. وإن أقل ما يحيي تلك العلائق ويحرك عملها ولو في مقدار خفق النبضة ، يكفي ليحجب المشهد كله عن عين المشاهد .

فما احتجب جبريل وما كان له أن يحتجب ، وإنما بشرية محمد الآن لم تعد ترى .

وجبريل في مفهومنا ، سيال روحي (١) ، اوقل بتعبير المتصوفة : مدد الهي في مقام من المقامات ، ولكل منها إمداد وتجلٍ .. فهو معنى غير مفارق ، وإن تبدى في صور تنتزعها النفس من حالاتها .

إنه أي جبريل ، طاقة روح في درجة استعلاء هي القمة .. ولعل في حديث « الشعبي » ما يشير الى هذا الملحظ ، وهو « أن

---

(١) وقل مثل هذا في كل ملاك هو في مسرى الروح يجنح بها الى فوق .. وقل عكسه في كل ما يجنح بمسراها الى تحت .

رسول الله نزلت عليه النبوة ، وهو ابن اربعين سنة . . فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن . . فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة : عشراً بمكة ، وعشراً بالمدينة [1] » . . .

* * *

وتغمر النبي راحة نفس لا حد لها ، فيقفل عائداً الى « حراء » مقر تأمله وتساميه .. وينقطع في هذه المرة وينقطع ، ويخامر خديجة ما تخشى.

فتنطلق حيث هو المهبط الأقدس ، تحمل له الزاد والماء ، وتحمل له ما هو أسمى من الزاد والماء . . تحمل له قلبها ذلك « الملاك الحارس » .

ويتولاها رعب حين لم تجده في الغار ، فهي تجري هنا وهناك على غير قصد منها بين معاطف الجبل ومنعرجاته . . وتلقى رجلاً كان غريب الملامح عليها يجوس خلال المنحنى ، فتزيد رعباً وتزيد سعياً ، لتجد النبي عند حنية شاخصاً ببصره في السماء حيث النجوم السوابح ، الممعنة في الجو البعيد .

---

(١) راجع عمدة القاري في حديث بدء الوحي . . على أن جمهرة شراح الحديث يذهبون الى أن النبي بقوله لقد خشيت على نفسي لم يقصد به الا أن يكون امتحاناً لمقدار ثقة خديجة به وابتلاء لقلبها ، وأما مقتضى ظاهر قوله فحاشا أن يكون راوده ، وفي هذا التخريج ما فيه من قيل وقال .

فتردده اليها . . بعد لأي منها ولأي منه ، فيطالعها ببصره ذلك المحبب الرغيب ، وتنبسط اليه باثة في أذنه خبر الرجل الذي رسمت له سيماه وما استثبتت من معارفه ، لتعقب بمخاوفها من أن يكون طائف غيلة .

ولكن النبي يبسم ، ليفضي اليها بأنها أيضاً حظيت بملاكه . . فهي تغتبط . . ثم يفضي اليها بقول الملاك لهنيهة سبقت :

[بشر خديجة ببيت من قصب « اللؤلؤ المجوف »

لا صخب فيه ولا نصب (١)] . . فتتوزعها هزة طرب ، وتميد بخفق فرحة لا تمسك من نفسها معها .

وتأخذ النبي مثل الفجأة الباغتة ، وتأخذها مثل الدهشة الذاهلة .. لتتحرك بعد حين ، يد النبي تشير الى المنبسط الفضاء .

« يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك (٢) » ، وفي سرور الدمع ودمع السرور تجيب خاشعة :

« لله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام (٣) » .. وتتناهى في نشوة أقداس كأنها نشوة أحلام .

(١ و ٢ و ٣) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٤ .

في مركبة الفجر

« لتكذبنه ، ولتؤذينه ، ولتخرجنه ، ولتقاتلنه » .. قالها ورقة ، وكأنه كان مع غد الجاهلية على موعد ، يعلم خافيته وما يتحرك في عروقه من تنكر حاقد ، وما يضطرم في صدره من غليان مخيف .

انبسط غد الجاهلية أمام ناظريه ، انبساط مشهد عريض ممتد ليس يحتجب منه جانب . . فهو يرى عنتاً ويشهد قسوة ، وفي هذا العنت وهذه القسوة يرى وحشية محدودة الانياب مشرعة الاظافر .

ومحمد هذا النبي الاكرم . . يراه جاهداً في العباب من ثورة المجتمع الغاضب ، فيعروه ضيق ويتولاه حنق ، وتتداركه حماسة الانتصار ، فيميل متوتر الاعصاب كمن يهم بقبضة لا يبالي كيف وقعت وأنى وقعت ، « ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً مؤزراً يعلمه » .

ويدور ناظره دوران الذعر ليتسارع فيه على فجأة اطمئنان بادي الغبطة ، فيبتسم كمن يبارك . . انه يرى محمداً ليس وحده ، فها هي خديجة ، وها هو ابو طالب ، وها هو فلان وفلان في نفر غير قليل .

فالمجتمع ثار على محمد حقاً ، ولكن ها هو بهذا النفر يثور أيضاً على نفسه ، وثورته على نفسه علامة تحوله ، ونذير بقرب انهيار ماله من قواعد ، مشت الزلزلة المتنفضة فيها ما بين حجر وحجر ، وما بين حبة رمل وحبة رمل .

ألا . . إنني الآن أرى بداية النهاية لدعوى الجاهلية ، المتداعية طلالاً على طلل ، ورجماً دونها رجم . . ونهاية البداية لدعوى النبي ، المتشامخة قماً فوق قمم ، وعمداً دونها عمد .

وعاوده تحديق تناهى به الى مثل جمود متصلب القسمات حيناً ، والى مثل زهزهة متطلقة الأسارير حيناً . فقد رأى في البعيد ، مركبة الفجر تمر في الحلك الدامس ، فهو يلفها آونة وهي تغريه آونة ، ثم استمر لها ذلك فأيقن بالشروق .

مره وطاب له ، أن يرى خديجة ـ وله من دمها وله من حقيقتها ـ تطعم مركبه الضياء من قلبها ، وتضع يدها في اليد الموضوعة على

الزمام ، ثم تدفع ولا تألو ، دون الغاية . . غاية من كان يعمل على أن يلجم الليل .

* * *

[يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر] .

على موهن من الليل - ومشبوب من حياة القلب الطائف على نشوات ، والمهدهد في الومض الرخي المنسكب - جلجل في صدر محمد صوت السماء يهيب به الى النهوض . . فأبناء التراب ، تراباً - استمروا - يحولون ، وزيت المشكاة التي اوقدتها يد الله في طبيعتهم أحالته تلك الطبيعة ثقالة ، لا يكون لها - مهما اضطرمت - حظ الضوء حين لم يبق لها في العطاء الا حظ الدخان .

كذلك كانت تبدو هذه الطبيعة البشرية يومذاك ، وقد شققها الزفير اللافح ، وخدد فيها الأخاديد الى مسارب عميقة ، ودارت نواهش الجفاف خلالها تشتف ، حتى لأوشكت أن تأتي على نواة بذرتها الألوهية في طبيعة الانسان من بيادرها .

هب محمد رسول الله على نداء النذير ، لا يبالي غضباً ولا رضا ، ولا يأبه أأرادوه لعنف كالح ام انبسطوا اليه بلين محبر ، ثم لا يحفل

أبات منهم على حسك موجدة ام بات منهم على مناعم ود من زغب الأقحوان .

لقد انطلق يمضي وأمام ناظريه أمر من الغيب ، وانتداب من السماء ، « قم فأنذر » .. وهو كلما مضى أكثر فأكثر أمعن أكثر فأكثر ، دون هوادة على ثقل الاعصار ونجهم الأفق المحيط .

في هذا النداء ، كشف له الغيب : من يكون ، وما هو كائن له .. وما كان ليتنكر محمد بحقيقته فيتوانى ، وما كان ليتجاهل التزامات رسالته الكبرى فيصانع .

انه مدعو لمجابهة مجتمع بكل ما فيه ، ومن وراء مجتمعه كل مجتمع مركوز على غير قاعدة انسانيته .. فما هادن وما استكان ، بل بسط في مقدسات الباطل يده ، وأعمل فيها معاول من إرادة الحق ، واجتماع أعصاب العزم الأقدس .

وكان تنزيل هذه الآيات مع بدء الخطوة ، لترسم له مناهج الطريق ، وأسلوب العمل في أخذ نفسه وأخذ الناس .. وجاءت هذه الآيات الكريمة ، متتالية تتالي البنود ومعقودة عقد المواد ، تبياناً لالتزامات المجاهد الكادح والمناضل العزوم .

« يا أيها المدثر (١) » .. نداء لمشتمل بدثار الروح وأثواب التأمل - في عزلة استعلاء ، وتوحد تقديس ، وروحان ارتشاف - حين فاض إناؤه ليعطي ، . .

« قم فانذر » .. إهابة به الى العطاء في شكل الازالة والتهديم ، والعطاء في السلب كالعطاء في الايجاب ، كلاهما يكمل على الآخر سره ويجمع له معناه ، واعني كلاهما طريق الى قلب صنوه .

والانذار كلمة لونها لون الوعيد ، وهو إنما يتحدد فيما أنت مستهدف من حواضن الشر ، ومثابات الفساد ، ومكامن الخطر .

وجاءت الاهابة بكلمة الامر « قم » ، لافادة أن واجب المصلح ليس التنوير فقط ، بل جمع العزم كله في جهاز العمل كله . . فشأنه أبداً شأن الحارس الساهر ، هو متفتح العزم تفتح العين لا يُغمض منها كما لا يخفض فيه .

و « قم » هذه من بعد ، تعني : كن حركة متهيئة ، وعزمة جميعة ، ونهضة مشتعلة ليس من شأنها الا أن تقدم .

---

(١) المفسرون على أن المدثر هنا المتلفع في الفراش ، وذهبوا هذا المذهب اعتماداً منهم على ماورد في حديث بدء الوحي من انه عاد الى اهله فقال دثروني مرة ومرة زملوني .

« وربك فكبر (١) » . . نقلة الى شكل العطاء في الايجاب ، فأنت اذ تهدم ، ينبغي أن تبني في مصاحبة لا تنقطع او تتوقف ولا تتوانى او تتأخر . . فالحياة إنما تدور حركتها بالموت لأنها به تنشىء ، وما إخال الموت في يد الحياة الا كالمحاة في أيدينا حين نخط ، ليست هي وسيلة لنقف بل هي وسيلة لنستمر ، وليست هي عنوان إزالة بل هي عنوان احسان .

والقرآن بجملة موجزة ، أبلغ ما يكون الايجاز ، جمع للمصلح الحق كل غاية سعيه .

فالرب رمز الخير وموئل الجمال وينبوع الحق ومفيض القيمة ، فكل شيء اذن دونه ، وهو إنما به يتقيم .

وتأتي القرآن بصيغة القصر ، تأسيساً لهذا كله ، في الفكر والقلب وما فوق الفكر وما دون القلب . . والمصلح بهذه الثقة وبحكم هذه الغاية ، يعرف كيف ينشىء دون حساب ، ويبدع دون مثال أي ابداعاً عبقرياً ، او بمثال مطلق هو الرب جل شأنه ، الذي تتكسر - حين تخلو من معناه - القيم ، وتنزف دماؤها ، وتعرى من روحها .

---

(١) التكبير في الآية بمعنى التعظيم والتفضيل ، لا بمعنى مرادف التهليل كما توهم المفسرون جرياً مع المتبادر الشائع .

وأنت بهذا الاعتقاد أي الله أكبر ، قوة لاتدحر . . ثم كل ثابت تراه ، تحس به في يديك يتخلل .

والمصلح الأكمل حين يندفع اندفاعه ، بهذه الثقة في كل كبريائها ، غاسلاً أثواب حقيقته لتأتي إشراق الطهر كله ، لا تقوم دونه عقبة ، وإنما تتداعى كالكثيب المهيل بين يديه العقبات .

« وثيابك فطهر (١) » . . اسبك نفسك بما انطوى فيها من نزعات وانتظمته من ميول ، سبيكة الشعاع . . واسكبها سكب قلب الكواكب ، شآبيب ضوء ومنابع نور ؛ . .

« والرجز فأهجر (٢) » . . نافياً من جو نفسك كل نزوة ، واي درن يمر في آفاقها مر الكلف ، ويتمادى على وجه سمائها تمادي السفعة في مقلة الشمس .

---

(١) ما نزع اليه المفسرون من ان المعنى هو تقصير الثياب وكانت العرب يومذاك يطولونها خيلاء اوتنظيفها ، بعيد كل البعد عن روح القرآن . . وانما المعنى بالثياب فيما نرى ، النفس او الحقيقة . . والعرب كانوا يقولون لله اثواب فلان يريدون نفسه ووقع بهذا المعنى عند ابي الاخيلية راجع أساس البلاغة للزمخشري . . ووقع عند عنترة في قوله :

وشككت بالرمح الاصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

واستعمل به المبرد في الكامل لهذا المعنى فراجعه .

(٢) المفسرون أوأكثرهم يذهبون في الرجز الى انه الوثن ، اما نحن فنميل الى انه هنا يعني مطلق الدنس والدرن من أي نوع ولون وجاءت بهذا المعنى اللغة .

ومصلح يصنع نفسه هذا الصنع ، ويشتق أعصابه من تلك الثقة ، لحري بأن لا تقطع المخاوف « منته » ، وطاقة نفسه على الاحتمال ، وقدرة عزمته على المضاء والأمعان ؛ . .

« ولا تمنن تستكثر (١) » . . ثم لحري به ، أن لا يستعظم المصائب والخطوب ، بل هو كلما عظمت استقلها في عينيه . . فلوجه فكرته يجهد ، وفي ذات الله يعمل ، فشأنه دوماً « ولربك فاصبر » .

* * *

بهذه الآيات التي رسمت له منهج العمل الكبير ـ الكبير في آلامه ، في تجلده ، في جلاده ـ أخذه الغيب أول ما أخذه . . فوطن النفس في لذة على المكروه ، وباشره مباشرة الرغيب اليه .

وخديجة هذا الملاك الحارس ، حشدت له وحشدت . . حشدت له في التضحية راحتها ومالها ، وما فوق الراحة والمال حشدت له

---

(١) المفسرون جميعاً على أن تمنن في الآية من المنة بكسر الميم بمعنى اليد والعطية وهو لا يتفق أبداً مع تسلسل النظم القرآني ، وعندنا انها من المنة بضم الميم بمعنى الصلب والقوة والعرب يقولون من عليه يمن تفضل ويقولون منه يمنه اضعفه وقطع صلبه ، والمعنى القرآني على هذا لا تمنن نفسك أي لا تضعفها بما سوف يعترضك من المخاوف . . ومنه قول القائل :

كأن لم يمن يوماً في رخاء اذا ما المرء منته المنون

وعلى هذا ترى كيف يتسق النظم القرآني وينسجم معناه انسجاماً بديعاً في علاقة طبيعية .

الحياة حين بذلتها بذل السخاء ، ونزلت عنها نزول السماح .

فقر النبي عيناً ، ولا بدع ، فقد تفقد فيها جناحيه ، فكانتها له - كما يريد - منشوري القوادم موفوي الخوافي .

وبات محمد كما بات النسر المساور على نشز ، وأمعن مشتداً في رحلة الى الافق البعيد . . لا يبالي أمر به اعصار ، ام استدارت به عاصفة .

لقد انصبت في جناحي محمد قوة معجزة كما لا تعرف ، او كما لا يعرف الخيال منها ، قوة كانت قلب امرأة اخلصت . . وقلب امرأة حين تخلص ، كون كبير .

وتأمل طويلاً ما استوى التأمل لك ، وأمعن النظرة ما اتصلت عندك ، ثم أعط أذنك لرواية ابن اسحق ، تشهد حقاً أية امرأة هناك كانت تظلل النبوة ، وليس كما يعطف الورق حسبه الظل يلقيه ، بل كما تقي الأضالع . . أقل ما تهب ، أنها تستقبل الجراح ، وتجفف بشفاه القلب دمعة الاسى ورشحات الجهد :

[خفف الله بخديجة عن نبيه ، لا يسمع شيئاً يكرهه ، من رد عليه و تكذيب له فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه بها . . اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس (١)] . . .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٣ .

حبات ضوء

(بشر خديجة ببيت من قصب) . . ذلك هو وسام الاستحقاق الذي نالته من تقدير السماء ، وسخت به يد الله عطاء كريماً ، حين وقفت الى جنب النبوة المكافحة في كل مواقفها الأولى المرهقة . . لكأنما كانت تستعذب الألم كيفما استدار ، متنمراً أو مستأسداً .

انها تقبل عليه مختارة ، وترشفه في نهم ورغبة نهس . . وما أدرانا ان لا يكون عذباً حقاً في حسها ، وما ادرانا ان لا تكون ـ وهي تستقبله ـ في فرط من لذة لا تبلغ اليها أحلامنا في الآلام .

ففي حسها استحوذ وجدان مثالي أسمى ، فهي به تطعم طعم الأشياء ، وهي به تتذوق ما يعرض لها ، أو ما قد يعترضها من شؤون : عامل الشجا أكبر العوامل فيها ، ومستحلب المرارة هو اغزر ما تفيض به من عصارة .

وفي أعصابها مشى ذلك التراثي الأقدس ، ومن أمره انه لا يستخفي ويبهت مع الآلام ، بل يزيد حدة تألق ، ويزيد فرط سطوع كما لو ركب في جناحي توهج .

نعم . . انها بوجه من نعرف من شهداء العقائد - ان لم نقل بأسمى صحة وبأسخى بشراً - كانت تستقبل آلام الكفاح الذي خاضه قرينها النبي وخاضته معه ، عاملة ماضية وصابرة محتسبة ، لا ينبض عندها عرق بلين أو نخوف . . بل هي تقطع قناطر الدموع ، والخطوب المتغولة ، في بسمة كبرياء لم يعهد منها الا بعض نفر من صانعي التاريخ .

بصدرها الرحب ، كانت تستقبل العاصفة وشظاياها المشتعلة ، لا ليكون لها في حسها ذلك الرجع المدمر ، أو ذلك الوقع الصاعق . . وانما ليجيء ايضاً مادة ناهضة تدفع بها وتدفع ، وتمد لها في أخذ الطريق غلاباً ، شأنه اللذة بالفكر .

لقد بان في هذه الحقبة ، التي قدمتها بطلاً ضخماً من أبطال الرسالة ، يوم لم يكن لهذه الرسالة من ابطال ، الا محمد بكر السماء في أرض الجاهلية ، والا فتى هو بكر الايمان الحق فيما وعت الدنيا . . من ورائه والده الشيخ يباركه ، ويبارك قافلة الغرباء التي كأنها أتت

على مناكب الغمام من بعيد :

[قال ابو طالب لفتاه علي : يا بني ما هـذا الذي أنت عليه . . فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسوله . فأطرق ملياً ليقول :

الزمه يا بني ، أما إنه لم يدعك الا الى الخير (١)] .

لقـد بان فى هـذه الحقبة ـ وأنت خديجـة خلالها بطل بناء ، لا تثخنه الجراح مهما استفحلت ، ولا تهبض جناحـه مهما دوّمت ـ سر قدَرها ، ذاك الماضي المثقل بالارزاء ، الذي ما كان ينقطع بلون الا ليتداركها بلون ، وهو اذا سكت عنها فلى هدنة قصيرة .

نعم لقـد انكشف ان القدر ، انتدب من نفسه سوبياً لخديجة ، وتعهدها تعهد الاعداد . . فهو لا يفتأ يبنيها بناءه ، ويصقل أعصابها ذلك الصقل ، ويأخذها بتجاربه شيئاً بعد شيء ومنزلة فمنزلة .. ليعود فيعمق مراسي احتمالها ، ويفجر منابع ذاتها تفجير الثقة وكبريائها ، تفجير البطولة وتهاويلها .

أترى ؟ . . وهذا ما احسب ـ أن القدر في كل ايامها ، انما كان يصنعها ليومه ، لهذا اليوم ، الذي شاءه الحق فاصلاً في معركة الباطل .

* * *

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٧ .

(بشر خديجة ببيت من قصب) .. والقصب كما عرفنا ، مجوفات اللآلىء (١) .

وما اروعه صورة في الخيال وهو يرسمه ، بيد انه ليس ابدآ بأروع من تضحياتها ، التي انما صاغ الخلد هذا البيت منها ، وجاء به تباورات من منسكب اياديها . . فيه من طهرها ذلك الشعاع ، وفيه من نقائها رفة جبين الملائك وهالة وجه النساك .

لبثت في هذه الحقبة التي توجت جبين حياتها ، وأناملها - كيفما تحركت - ترش حبات ضياء لتجيء متناثرات عقود ، يلمع منها أطواقاً الخالدون ومن في طريقهم ، وتستحم بوهجها أرواح مقرورة تطلب الدفء المنعش . . .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري بسنده الى عائشة وغيره كثيرون .. والقصب عند الجوهري هو أنابيب من جوهر ، ونقل النووي عن بعضهم انه ذهب منظوم بالجواهر ، وقيل اللؤلؤ المجوف كالقصر المنيف . . وعن أبي هريرة قال قلت يا رسول الله وما بيت من قصب قال بيت من لؤلؤة مجوفة رواه السمرقندي ، وفي صحيح مسلم بيت من لؤلؤه مجوبة قال الخطابي مجوبة قطع داخلها فافرغ . . وروى أبو القاسم ابن مطير باسناده الى فاطمة سيدة نساء العالمين ، انها قالت لأبيها : أين امي ؟ قال في بيت من قصب لا لغو فيه ولا نصب بين مريم وآسية امرأة فرعون ، قالت أمن هذا القصب هو قال لا انه المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت . . والسهيلي في الروض الانف ذهب الى ان الحديث اختصها بالنص والتأكيد على بيت ، لأنها كانت صاحبة بيت الاسلام وهو تخريج مستحسن .

وتشتد قريش شدتها ، وتركب سنام عنفوانها الهادر بالبغي ، وخديجة في عين الله تُرى ، تأخذ طريقها الى الحطيم ، حيث البيت العتيق وحيث قريش الفائرة .

تأخذ طريقها غير حافلة ، في ظل من تطل من عينيه الشمس ، وأزاءها فتى قالت الشمس إن انعكاسها في عينيه اللتين تركت فيهما أعمق اسرارها .

نعم تأخذ الطريق ثابتة القدم غير واجفة ولا مترددة ، الى هناك تقيم صلاتها على اللجة من صخب المجتمع الحانق :

(كان الناس يرون رجلاً يصلي ، ووراءه امرأة وغلام ، وحشد يسخر) . . .

وتكشف صحابة محمد (ويدخل الناس في الاسلام أرسالاً أرسالاً من الرجال والنساء) ، وتبالغ قريش في شدتها شدة ، وفي عنفوانها عنفوان ، فتأخذه وتأخذهم اخذ الطيش ، وتستقبله وتستقبلهم استقبال العنت ، وتتحرك به وبهم نحرك الحقد . . فباطل قريش لم يعد يطيق لغة العقل :

(وقالوا : لن نؤمن لك ، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . او ان تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها

تفجيراً . . اوتسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفاً . . او تأتي بالله والملائكة قبيلاً . . او يكون لك بيت من زخرف . . او ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . . قل : سبحان ربي ! . . هل كنت الا بشراً رسولاً) .

فهذه الآية ليس ابلغ منها في تصوير عناد قريش ومنطقها المحموم ، وما قد اخذت به محمداً وصحبه من تعصب يركب حماقة وينطاق بقسوة ، واذا قريش هنا وهناك (يتذامرون بينهم على من في الأحياء من أصحاب رسول الله الذين اسلموا معه ، فوثب كل حي على من فيه من المسلمين ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم (١)) .

واذا بأبي جهل هائج يعقد خيوط خطة فدائية ويحكم امرها (فمحمد قد ابى الا ما ترون من عيب ديننا وتسفيه احلامنا ، واني اعاهد العزى واللات : لاجلسن له غداً بحجر ما اطيق حمله ، فاذا سجد في صلاته فضخت به راسه ، فأسلموني عند ذلك او امنعوني . . وليصنع بي بنو عبد مناف ما بدا لهم . . فيردون بصوت واحد : امض لما تريد ، ما نسلمك أبداً) .

ويطلع محمد في بعض الطريق يوماً ، فيثبون اليه وثبة الصخر

---

(١) راجع سيرة بن هشام ج ١ ص ١٦٥ - ٢٢٠ .

الجميع ، ويحيطون به احاطة السوار بالمعصم يصرخون في وجهه (انت الذي تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم . . فيقول رسول الله : نعم انا الذي اقوله .. فيأخذ بعضهم بمجمع ردائه يخنقه ، ويهلع قلب ابي بكر فينهض دونه وقد قطعه البكاء :

اتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله . . فيجذبونه بلحيته جذباً شديد الوطأة) .

ويرجع الرسول الى منزله عاقد النظرة على رثاء ، ومجتمع القسمات على شفقة مكتوبة ـ وحاشا محمداً ـ فما عقد نظرته يوماً على يأس ، وما اجتمعت قسماته على اكفهرار من ضاق ذرعاً .

فتستقبله خديجة ببسمتها التي ما حالت عن بشر كان يتزايدها في الملمات ، وتأخذه بنظرتها المتفائلة وما انزلقت الا عن امل ، وتفتح قلبه على الثقة بالغد وأنه لن يشرع بابه الا لأبنائه ، ابناء دعوته الجديدة .

وانه لكذلك منها . .ويحس بهدير عميق كأنما يقع الى اذنيه من مكان بعيد ، ويتضح وضوحه ، ويتدارك شبه انصراف شارد باتت تعرف سره عنده . . فتقبل عليه بفؤاد خاشع اللفتة ، وبطرف مفعم اللحظ بالوجد وما هو الى الوجد من حنين اقدس .

وما هو حتى يقبل النبي ويقبل ، كما لو انه توارى في غير مكانه ، ويهب مشتداً الى اردیته يجمعها عليه ، فقد جاءه الوحي (فاصدع بما تؤمر) ، وجاءه الوحي (ولا تك في ضيق مما يمكرون) .

فيبالغ النبي في الدعوة الى الله ، صادعاً بأمره ، ناهضاً بأعباء التزامه وإن فادحاً (انا انزلنا عليك قولاً ثقيلاً) ، وناشطاً الى الغاية يعبد بمنكبيه الطريق ، ويدفع بصدره الصخور المعترضة ، بين يدي قافلته التي ينبغي لها ان تسير :

ان ضمير الحياة يناديها ، يناديها وحدها لتصنع مجتمع الاحياء من جديد ، وتقود مركبة التاريخ .

وقريش لا ترعوي ، فهي تشتد اشتدادها في المكروه وتبالغ به ، وتثقل وطأتها . . فيهاجر نفر تسخو نفوسهم بالاغتراب والتشرد ، وتسخو بما لهذا وهذا من مخاطر أقلها البؤس ، ضناً بالعقيدة المثلى التي حررتهم .

وتنشط خديجة المقدسة ، تعين العائلين منهم وتزود المعوزين بينهم ، وتنفق عن جود لم تعد تحس به جوداً بل واجباً ، تنفق دون حساب .

انها باتت تشعر بأمومة العقيدة شعورها بامومة من كانت له في اللحم والدم .

وزوجها النبي ، ان يكن اعطى في الابوة البذار ، فان من حقها ان تعطي في الامومة اللبان .

* * *

وكان في مهاجرة هـذا النفر الكبير ، ما ضاعف صلف قريش ، وحرك عتوها في القسوة اكثر فأكثر .

فها هي تبتكر في العقوبة ألأم ما عرف تاريخها ، تبتكر العقوبة بالمقاطعة الاجتماعية على كل الوانها من اقتصادية وحيويـة . . ومثل هذه المقاطعة في ذلك المجتمع ، لأشد من الموت صبراً .

انها تعني الابادة بوحشية ، تعني ادارة رحى ضخمة ، بين حجر منها وحجر ، ما تعرف وما لا تعرف من جوع ومرارة ظمأ وحدة آلام :

(فاجتمعوا وائتمروا ان يكتبوا كتاباً ، يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب : على ان لا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، الى بنود كثيرة ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على انفسهم) .

وكان ابو طالب يومذاك ، قلعة محمد التي يعتصمها ، فتعصمه . . وعلى ان خطة قريش الجديدة مفزعة تدور بلسان الرعب ، لم تزد ابا طالب الا رغبة في الذود عنه ، وحرارة في الرمي عن قوسه . . وينحاز الهاشميون والمطلبيون اليه ، ويقيم ويقيمون على الجهد المرمض (ثلاث سنين) ، وتحبس خديجة داخل الحصار المضروب ثروتها تخفف من نائبته ولا تبالي أن تنضب ، وتنبعث ميسرة الأسباب لكسر هذا الحصار ما أمكن اولشل أثره ما امكن ، وتؤلب - ولا تفتأ - ذويها لامداد المحاصرين سراً .

وتفعل فوق ما في طوق البشري ان يفعل ، ويهون عندها ، على ان لا تندحر دعوة بعلها العظيم .

وتنجح حركة التأليب أي نجاح ، ويستفيق في بعض النفوس ضمائرهم ، وتمشي فيها مثل فوهة « بركان » يكاد يثور ، ويكاد يتأجج .

وكان في بعض الدرب انسان يتأطر تأطر الاستخفاء ، من ورائه فتى يحمل شيئاً تأخذه العين ولكنه يتحرف في المنعرجات كمن يشد عليه استارها .

وكانت عين ابي جهل هناك تدور ، كعين افعوان تفري

الدروب ، فهب يشتد اشتداد السهم المنطلق ويتواقع تواقع القدر الهابط ، وفى مقلتيه لفتة نسر جائع .. فيذهل الرجل ، ويسيخ الفتى فى نفسه الذاهب ، وتقطع الصمت الواجم أو الكالح ، نبرة تتوعد .

وكان الرجل حكيم بن حزام بن خويلد ، وكان الفتى غلامه .. [يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة حيث هي فى الشعب مع الرسول ، فتعلق به وقال :

أتذهب بالطعام الى بني هاشم ، والله لاتبرح انت وطعامك حتى افضحك بمكة .. فجاءه ابو البختري ابن هشام ، فقال : ما لك وله ؟.. فقال : يحمل الطعام الى بني هاشم . فرد ابو البختري :

طعام كان لعمته عنده بعثت اليه به ، افتمنعه ان يأتيها بطعامها ، خل سبيل الرجل .. فأبى ابو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ ابوالبختري لحي بعير فضربه به فشجه ووطئه وطأً شديداً ، وحمزة بن عبدالمطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون ان يبلغ ذلك الرسول وأصحابه .

وسعى سراً بعض الى بعض بنقض الصحيفة حتى كانت زمرة ، فقال زهير ابن ابي امية : انا ابدؤكم فأكون أول من يتكلم .. فلما أصبحوا غدوا الى انديتهم ، فطاف زهير بالبيت ثم أقبل على الناس ، فقال:

يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ، والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فهب ابو جهل يقول : كذبت والله لا تشق .. فيهبه زمعة بن الأسود : انت والله اكذب ، ما رضينا كتابها حين كتبت .. قال ابو البختري : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقربه .. وقال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها .. وقال هشام بن عمر نحواً من ذلك . فقال ابوجهل وهو يصرف بأسنانه :

هذا أمر قضي بليل .. وابو طالب جالس في ناحية المسجد ، فهب المطعم الى الصحيفة يشقها عنده ، وكانت قد أكلتها الأرضة (١)] .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ - ٢٢٧ .. نستطيع ان نقطع بان أروع كفاح وابلغه شأناً في تاريخ العقائد دينية كانت أم أوغيرها كان الكفاح الاسلامي في هذه الحقبة ، ومن الاثم في جنب تاريخنا الاسلامي ان لا تعطى الجهد اللازم وان تهمل هذا الأعمال الذريع على ما في طياتها من طاقات تحيي وتنشئ .. ولعل من أنصع ما يعبر عن مرحلة هذه الآلام الكبيرة شعر أبي طالب الذي كان يزلزل مجتمع قريش يومذاك زلزاله الأشد ، ومن الخير أن =

وباتت خديجة هانئة .. لقد كسرت طوق قريش ، وأذاب قلبها قلب الحديد ، وبسطت لمحمد الطريق مرة اخرى الى مجتمع أحس بالهزيمة .. يوم شلت مقاومته الاجتماعية لأول مرة ، وبذرت في تربته بذور المحاسبة الضميرية ، أي بذور تزلزله وتداعيه لأنها بذور الثورة على النفس .

لقد كان نقض الصحيفة في نظري بمثابة نقض ذلك المجتمع العتيق كله ، وكان معركة الظفر المعنوية به التي جاءت الأولى والأخيرة ـ على الحقيقة ـ وما بقي فقوة استمرار وحركة تطهير .

وها .. خديجة المقدسة تغمض جفنيها ناعمة المقلة (١) ، فقد

نضع هنا مثلا معبراً عن ذلك الألم الحي :

ولما رأيت القوم لا ود عندهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوما علينا أظنة ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي واخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قياماً معاً مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضي حلفه كل نافل
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل

(١) لحقت السيدة خديجة بالرفيق الأعلى قبل الهجرة بخمس سنين أو بأربع أو بثلاث وهو الأصح بعد ابي طالب بثلاثة أيام في شهر رمضان ، ولها من العمر أربع وستون وستة أشهر ودفنت في الحجون .

رأت ظفر محمد حقاً ، رأته في اشلاء ذلك الطوق العاني الصريع ، وفي أمزاق صحيفة أكلتها أرضة ، كأنما سكبت من لعابها على باطل الناس ما سكبت منه على باطل الحرف .

لقد أكملت خديجة رسالتها في عين محمد ، ليكمل رسالته في عين الله .

وكان أن ارتسما في وعي الدهر ، ارتسام سحابة على تربة ، بينهما الخصب الممرع .

قارورة العبد

حتى الايمان .. ليطيبَ ، ليسكب انسكاب الملاب بالعبق والفوح ، هو في حاجة الى تخمير ، الى تعتيق .

ولعل ذلك ، هو ما خالط النساك الذين اعتزلوا الحياة وما الى الحياة من أباطيل الزخرف وزخرف الأباطيل ، وأخذ بهوى أفئدتهم أخذاً في الذروات حيث المغاور والكهوف ، مغمضة الأعين نصف إغماض ، لتتلقف إنساناً شاء له القدر أن يسكب فيه سره ، وان ليجعل منه قلباً انسانياً أتقى .

فهو يحتويه ، ليصنعه صنع الجواهر الكريمة ، بالصقل والتصفية والتهذيب .

إنهم يندفعون اندفاعهم تحت حس عفوي خالص ، قد يكون ، ولكنه في الباعث الأبعد والأعمق مشدود الى هذا القصد .

أتظن في غرض القدر ـ وما أستبعد ـ ان هذه الخلوات لهم ،

ليست الا الزقاق والدنان ، كمثلها للراح التي نصنعها صنع النشوة . . ولكن هذه عبقرية الرؤى ، سامية الأحلام .

ما أدرانا ان يكون ذلك من تعليل القدر لهم واسلوب عمله فيهم ، ثم ما أدرانا ان لا يكون قلب البشري ، هذا القلب نفسه ، وهو في شكل واحدة القوارير ، أنه قارورة حقاً لمتحلب الايمان . . وهو يعلل فيه تعليل الراح بالتعتيق ، ويعالج معالجة العصير بالتقطير والتخمير .

حتى اذا فض ختامه ، انفض عن كوثر ، عن ذات الانسان المبدعة ، انفض عن مثل معنى الخلد . . (إنا اعطيناك الكوثر) .

وخديجة المقدسة ، كان لها ذلك الايمان المعتق حقاً ، أي كان لها ذلك الكوثر الروحي الذي تدفق به حقيقتها ، كنبوع تمد ولا تنقطع ، تفيض ولا تغيض .

فأعطت للاسلام عطاء كريماً . . فقد غذت نبياً ، وتعهدت وصياً (١) . . وحاشا أن أقول صنعت ، فأنا في حمى ما ليس ببشري ،

---

(١) روى علي عن النبي انه قال : خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة . . يعني في دنيا الاولى وفي دنيا الثانية . راجع عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ج ١٦ في فضائل خديجة .

وإن كان لنميرها الطيب لو في غير هذا الحمى ، أن يصنع وأن ينشيء .

لقد تعهدت علياً أيضاً ، أي تعهدت للدعوة قطبها الآخر ، يوم ضمه النبي اليه ومد عليه ظل جناحه .

فتركت فيه حظاً كما تركت في النبي حظاً ، كانا لها تذكارين خالدين ، ما بقي للانسانية عرق تمشي فيه نبضة حس رفيع .

وجاءت مع النبوة ، لتقول : إنه معناها في عبارة اللحم والدم ، في عبارتها الأرضية التي تجوهر فيها التراب .

ولتقول أيضاً : إنها المرأة التي تعطي ، وهي هي التي تبدع .. اذا استعلت استعلاء حقيقتها وما انحدرت انحدار أنانيتها ، المتلمظة تلمظ الشهوة ، والمعربدة عربدة السكر ، والمسعورة سُعار الداء .

والمرأة ـ هذه الأعصاب الجميعة ـ قلما تستعلي ، ولكنها اذا استعلت تجيء شيئاً عظيماً ، تجيء مفترق تاريخ أي قاعدة تاريخ جديد ، ومصنع ابداع ، وينبوع حقائق كبرى .

وخديجة المقدسة ، كانت لنا في الاسلام ، ذلك كله .

كانت لنا امرأة ، على عضديها ، كأنما أقامت دعامتي قوس النصر ، ليطل وجهها من بينهما أبداً بلا لائه ...

* * *

والنبي على ما مر به من صروف كانت قاسية ، إن في الترحة أو في الفرحة ، كان لا يزايله وجهها الذي كأنما يستلهمه رجاءً ، حين يستنزل الرجاء ، واطمئناناً حين ينشد الاطمئنان .

إنه لا يفتأ يذكرها على اية حال من أحواله كلها ، ولا يفتأ يصله خاطر بها يندفع بخاطر .. حتى لأورث ضيقاً وأثار غيرة .. وها هي عائشة تحدثنا حديث مشاعرها التي أحفظت حيناً ، وتوترت حيناً ، ثم لم تطق بينهما إلا ان تلج محنقة الى محراب ذكراه القدسي :

(استأذنت هالة بنت خويلد اخت خديجة على رسول الله ، فعرف استئذان خديجة في استئذانها ، فارتاح لذلك فرط ارتياح وقال: اللهم هالة .

قالت فغرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها .

فغضب غضباً حمياً ما عهدته ، حتى لقلت والذي بعثك بالحق لا اذكرها بعد هذا الا بخير) .. وفي رواية [كان النبي يكثر ذكرها ، فربما قلت له : كأنما لم يكن في الدنيا امرأة الا خديجة ، فيقول :

كلا والله ، ما أبدلني الله خيراً منها .. انها كانت وكانت ، آمنت اذ كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ

حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء (١)] .

والنبي في غير الذكرى ، كان يجعل لها حظاً أي حظ من عمله ومن حياته ، فهو - كما روت عائشة - ما كان يبذل ويطعم إلا جعل خيار بذله وطعامه في خلائل خديجة وصديقاتها بما يسعهن .

وحين كانت أمالي الأبوة أو اية العواطف الأخرى ، لاتفعل فيه الا فعلاً يسيراً ، كان ايما أثر من آثار خديجة يدور به كطوفان . . فقد روي :

[لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعد بدر - وكان أبو العاص وهو ابن هالة أخت خديجة بينهم - بعثت زوجه زينب بنت محمد الى ابيها :

إنه أبو العاص ، ان قرب فابن عم ، وان بعد فأبو ولد ، واني قد اجرته . . وبعثت اليه كذلك بقلادة لها كانت خديجة ادخلتها بها على أبي العاص .

فلما رأى رسول الله القلادة ، رق رقة شديدة وذكر خديجة فلم

---

(١) راجع تفصيل الخبر في رواياته عند البخاري في صحيحه ج ١٦ ص ٢٧٧ - ٢٨٢ بشرح العيني ، وعند أحمد في المسند وعند الطبراني من رواية ابن أبي نجيح .

يستمسك وقال للمسلمين :

[إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوه عليها فافعلوا] .

* * *

وامتد بالنبي عمر طويل وظلت على لسانه عبارة الوفاء المثالي المورق :

[إني لأحب حبيبها] .

والنبي بذلك ، كأنما قطر تقطيراً عصارة الأقداس الاسلامية كلها وجعل منها قارورة معبدة ، لتظل ذكراها بالعبير ، تملأ الجو هناك ، وتحمل أرواح المتبتلين على أجنحة من فوح ، ورفيف من طيوب .

الفهرس

هذه السلسلة	٣
مقدمة	٩
فى مدينة الأوثان	١٦
على شفاه الزهر	٣١
امرأة تخمر الطيب	٥٤
يوم لاقت الملاك	٧٩
فى مركبة الفجر	٨٨
حبات ضوء	٩٧
قارورة المعبد	١١١

حديث الشهر

سلسلة كتب شهرية

تقدم فى مطلع كل شهر كتاباً فى موضوع خاص

الكتاب الثانى

يقدم فيه :-

الدكتور

مصطفى جواد

أبو جعفر النقيب

من أعلام الفكر فى القرن السادس الهجري

8684

VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa
SEPT - OCT 1989

Princeton University Library
32101 055409799
REC
(Arab.
BP76
.8
.K48A66

حديث الشهر

سلسلة تربط بين الماضي والحاضر وتمزج بين القديم والحديث .

« شهرية تعالج شتى المواضيع بأقلام حرة تمثل الأدب الحي الرفيع والرأي المجرد الحر .

يصدرها

عبد الأمير السبيتي

باشراف

جماعة من أعلام المفكرين

الثمن : ٦٠ فلساً في العراق

٨٠ « أو ما يعادلها في الخارج

جميع المراجعات مع

عبد الأمير السبيتي - الكاظمية